النهضة

تأليف

الأستاذ حافظ صالح

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة النهضة	٢
مقدمة الناشر	٣
النهضة	٥
الإنسان	٩
الأفكار والمفاهيم	١٣
الفكر المستنير	٢٠
العقيدة أو القاعدة الفكرية	٣١
فهم الواقع والتفقه فيه	٣٨
مسؤولية الدولة وليست مسؤولية الفرد	٤٤
مجتمعنا	٥٣
الأمراض الجانبية	٥٦
الاستعمار	٥٩
السير في طريق النهضة	٦٤
المعاناة	٧٧
أية أمة هذه؟	٨٥
الطريق السوي	٨٧

النهضة

إن كلمة النهضة كلمة عربية مشتقة من فعل نهض أي قام إلا أنها أصبحت تطلق على معنى اصطلاحي يدل على واقع معين. ولم يسبق للعرب أن استعملوها لهذا المعنى الذي أطلقت عليه في العصر الحديث فمعناها اللغوي حسب وضع

اللغة يختلف عن هذا المعنى الاصطلاحي ولذلك فإنه لا يصار إلى معناها اللغوي إلا بقرينة بعد أن ساد معناها الاصطلاحي وصار هو المعنى الذي يتبادر إلى الذهن عند سماعه سواء عند علماء الاجتماع وجمهرة المثقفين أو عند عامة الناس.

أما معناها اللغوي فقد ورد في قاموس لسان العرب: نهض: النهوض البراح من الموضع والقيام عنه. نهض: ينهض نهضاً نهوضاً. أي قام. انتهض القوم: قاموا للقتال. النهضة: الطاقة.القوة. مكان ناهض: مرتفع.

وبمثل هذه المعاني وهكذا فإننا لا نجد المعنى الاصطلاحي الذي هو موضع البحث.

مقدمة

قد يتبادر إلى الذهن أن النهضة هي التقدم العلمي وزيادة الإنتاج ووفرة المصانع واستعمال التكنولوجيا والإبداع في توفير الوسائل المادية المستعملة في الحياة باعتبار أن النهضة إنما تعني التقدم وانتقال المجتمع والناس من حال إلى حال أفضل حتى خيل للبعض أن كل بلد يعيش في بحبوحة اقتصادية هو بلد ناهض وهذا القول ينقضه الواقع المشاهد بالحس في كثير من البلدان التي تتمتع بازدهار اقتصادي ووفرة في وسائل الحياة المادية وبحبوحة من العيش مع أنها في الحقيقة من أكثر البلدان تخالفاً وانحطاطاً.

ولهذا كان لابد من تعريف النهضة وتحديد معناها وكيفية الوصول إليها وهل هي كما يزعمون بأنها انتشار التعليم وزيادة الثروة ومقاومة الأمراض؟ لتنفي أسباب التخلف بزعمهم، الفقر والجهل والمرض؟

هل وفرة المدارس، والمعاهد والجامعات وكثرة الخريجين الجامعين وحملة الشهادات العالية وفي كافة المجالات دليل على نهضة البلد أو سيره في طريق النهوض؟

إن المشاهد المحسوس أن كثيراً من البلدان المتخلفة ضاقت ذرعاً بكثرة الخريجين وحملة الشهادات العالية حتى باتوا عبئاً عليها وثقلاً يرهق كاهلها وعجزة عن توفير مورد رزق كريم له مما اضطرهم إلى مغادرتها وطلب الرزق من مظانه واضطرت هي لوضع سياسة تعليمية تحد من كثرة الخريجين في كثير من المجالات وتضع نسب معينه للنجاح وعدد معين من القبولات كي تستطيع استيعاب هؤلاء الخريجين الذين سيقفون يوما ما على أبواب دوائرها يطلبون العمل أو الوظيفة التي تؤمن لهم لقمة العيش.

وقد وصلت نسبة الخريجين وحملة الشهادات العالية في كثير من البلدان التي تعتبر متخلفة وتدرج في قائمة ما يسمى بدول العالم الثالث – الدول النامية – وصلت نسبتهم فيها أعلى بكثير من نسبة الخريجين وحملة الشهادات العالية في أكثر بلدان العالم تقدم بل إنها تصدر من هؤلاء الخريجين إلى كافة بقاع الأرض وإلى أكثر الدول نهضة وتقدم بل إن الكثير منهم قد تخلى عن تابعيته ليعيش في تلك البلاد.

فلو استعرضنا مثلا أي بلد من بلدان العالم الثالث (أي دول عالمنا الإسلامي) لرأينا ما يذهل العقول ويحير الألباب، خذ مثلاً مصر أو باكستان أو الأردن أو لبنان أو سورية أو تركيا أو غيرها فستجد أن عشرات الآلاف من أبناء هذه الدول من حملة الشهادات العالية وفي كل المجالات في الطب أو في الفيزياء في الهندسة أو في الكيمياء في الذرة أو

التكنولوجيا قد هجروا بلدانهم وضربوا في الأرض بحثاً عن قوتهم وكثير منهم استقروا في أمريكا أو ألمانيا أو في أي بلد آخر من الدول الناهضة المتقدمة أو في غيرها من بلدان العالم.

وقد أثيرت حول هذا الأمر موضوعات كثيرة وتحدث فيها الكثير من الكتاب والمفكرين وطرحت تحت عناوين مثل عنوان (سرقة العقول الناضجة) أو (هجرة العقول إلى أرض العقول) أو (أمريكا تشتري عقولنا بالمال) إلى غير ذلك من العناوين المثيرة ومع ذلك لم تستطع هذه العقول وهذه الوفرة من الخرجين إنهاض الأمة والارتقاء بها.

وبنظرة بسيطة إلى هذه الدول نجد أن وفرة المواد الأولية والثروات الطبيعية والأيدي العاملة غنية عن البيان ونستطيع إيجاز ذلك بكلمة موجزة أنها أغنى بقاع الأرض بما حباها الله به من نعم وما اختصها به من فضل ومع ذلك فهي تعاني من الفقر المدقع وترزح تحت عبء ثقيل من الديون حتى بلغ الحال بها أنها تستدين لتسديد فوائد الديون وتعجز عن وفاء ما يستحق عليها فتطالب وبإلحاح بإعادة جدولة الديون فلا تنتهي من أزمة إلى بأزمة جديدة هي أشد وبال وأسوء حال من سابقاتها.

والسبب في ذلك لا يعدوا أحد أمرين: إما جهالة القائمين على أمر الأمة لمعنى النهضة والطريق الموصل إليها فهم يتخبطون خبط عشواء عن سياستهم ورعايتهم لشؤون الناس وإما أنهم عملاء لسادتهم خونة لأمتهم وشعوبهم فهم يعملون على ترويض الناس وإبقاء البلاد مزرعة خصبة ومنجماً عداً وسوقاً واسعة لمن وضعهم على رقاب الناس أو أنهم جمعوا بين الأمرين.. الجهالة والعمالة.

ومن هنا كان لابد من معرفة ما هي النهضة وما هي الأسس التي تقوم عليها وما هي الطريق الموصلة إلى ذلك.

النهضة

النهضة هي إصلاح حديث كما قلنا وضع للتعبير عن واقع معين هو انتقال أمة أو شعب أو فرد من حال إلى حال أفضل ولكن أية حال تلك نعنيها؟وقد تبين لنا أن وفرة المتعلمين والخريجين وزيادة الثروة وكثرة المترفين لا تعني النهضة؟

إذن ما هو هذا التحول أو الانتقال الذي يعبر وجوده عن وجود النهضة في الأمة أو في الشعب أوفي الفرد؟ هذا هو بيت القصيد ما الذي يميز أمة عن أخرى؟ وما الفارق بين شعب ناهض وشعب منحط؟ وما المقياس الذي يفرق بين إنسان ناهض وإنسان منخفض أو منحط؟ ما الذي يميز فرداً عن غيره وكلاهما إنسان يتمتع بالخصائص نفسها وكلاهما يعمل جاهداً لسد حاجاته وإشباع جوعاته ومع ذلك نصف هذا بأنه إنسان راق وهذا إنسان منحط بغض النظر عن زيه ورياشه و لم نحسب لحجم جسمه أو شكله أو لونه أي حساب ومع ذلك نجزم بأن ما حكمنا به عليهما هو حكم صحيح وهو حكم حقيقي منطبق على واقعه. ذلك لأننا لم نحكم عليه إلا بعد أن شاهدنا سلوكه ورأينا تصرفاته وتعاملنا معه إذ لم نطلق عليه الحكم جزافاً و لم نصفه بما وصفناه زوراً وبهتاناً فقد كان سلوكه وتنظيم علاقاته وسيره في الحياة هو المرآة التي بينت حقيقته والبرهان القاطع الذي اعتمدنا عليه في حكمنا ولذلك فإننا نستطيع أن نصف الناس بالرقي أو الانحطاط بناءً على سلوكهم وتصرفاتهم ويكون هذا الوصف منطبقاً على واقعه بلا إفراط ولا تفريط.

قد نقرأ مؤلفات زيد أو نسمع لخطابات عمرو أو ننصت لمحاضرة محاضر أو يضمنا مجلس فلان فنستمع إلا أحاديثه فتسحرنا تلك المؤلفات وتمسك بمجامع قلوبنا تلك الخطابات وقد ننكر ما جاء في تلك المحاضرة أو نستنكر ما جاء في تلك الأحاديث ومع ذلك لا نستطيع وصف ما سمعناه أو قرأنا له بل نصف ما سمعنا وما قرأنا ويكون الوصف للمحاضرة لا للمحاضر وللحديث لا للمتحدث أما وصف المحاضر والمؤلف والمتحدث فلا يتأتى إلا بأن نرى أو نشاهد من تصرفاته وأفعاله ما يمكننا من الحكم عليه.

ولذلك فقد صدق من عرف الإيمان بأنه (اعتقاد في الجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان) أو هو (ما نطق به اللسان وصدقه العمل) فالبرهان القاطع والمرآة الحقيقية التي تنطبع عليها صورته على حقيقتها هي تصرفاته وأعماله ليس إلا.وأما الأقوال والمؤلفات فليست سوى مؤشر يدفع إلى مراقبة الشخص ومعرفة حقيقته.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَّ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾[1] ويقول: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[2]. ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهَّ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[3].

أما تقرير الحقيقة فقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[4] أما محاكمة ما سمعنا من خطب وما قرأنا من مقالات أو كتب أو ما استمعنا إليه من أحاديث فإنها مجموعة من الأفكار تجرى محاكمتها والحكم عليها بما تحاكم به الأفكار فالأفكار لها أحكام وقواعد ومقاييس خاصة يميز فيها بين الفكر الصائب والفكر الساقط بين الفكر السطحي والفكر العميق ولذلك حين نحاكم كتاباً أو مقالة أو محاضرة لا نلتفت إلى شخص المحاضر أو الكاتب بل إلى ما جاءت به من أفكار ومفاهيم مما دلت عليه ألفاظها ومعانيها دون أدنى تأثر بشخص الكاتب ومعرفته ونحاكم هذه الأفكار والمفاهيم بناء على مقاييس ثابتة وقواعد معينة وجدت خصيصاً لمعرفة صدق الأفكار والمفاهيم أو صحتها.

ولهذا فإن الحكم على الشخص لا يتأتى إلا بمعرفة سلوكه وتصرفاته ويكون الحكم على شخص بالرقي والانحطاط من خلال سلوكه بخلاف محاكمة العقائد والأفكار أو المفاهيم والأخبار.

وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع لأن المجتمع هو جماعة من الناس بينهم علاقات دائمة. وهذه العلاقات الدائمة هي التي جعلت جماعة الناس مجتمعاً ولولاها لبقيت الجماعة مجموعة من الأفراد كركاب السفينة لا تسمى مجتمعاً ولهذا كان المعول على هذه العلاقات وكان الحكم على المجتمع بناء على هذه العلاقات الدائمة وليس بناء على ما يعاني من بؤس وحرمان ولا على ما يتمتع به من ترف وثراء فالعلاقات هي المرآة الحقيقية التي تنعكس عليها حقيقة المجتمع وهي التي تنظم حياة الناس وبها تعرف العادات والتقاليد ومن سير هذه العلاقات ومن ملاحظة تصريف الناس لعلاقاتهم ومصالحهم نحكم على هذا المجتمع بأنه مجتمع صالح أو منحل نجزم بأنه مجتمع راق أو مجتمع منحط ولا عبرة في ذلك لوفرة المتعلمين والمثقفين والخريجين ولا عبرة فيه للنمو التجاري أو الصناعي ولا للازدهار الاقتصادي والثراء الفاحش بل العبرة في المقومات التي جعلت المجتمع مجتمعاً أي إن العبرة في الأفكار والمفاهيم التي تسود المجتمع والتي يسير الناس مصالحهم بحسبها وفي مشاعر الغضب والرضى التي أوجدتها تلك الأفكار والمفاهيم وفي القيم والمثل العليا التي آمن بها الناس ثم بالنظام العام الذي يضبط تلك العلاقات وينظمها ويحفظ للناس ما اتفقوا عليه ولهذا كانت العلاقات هي المرآة الحقيقية التي تبين حقيقة المجتمع

---

[1] سورة البقرة: ٢٠٤-٢٠٥.

[2] سورة الفتح: ١١.

[3] سورة الصف: ٢-٣.

[4] سورة التوبة: ١٠٥.

ويكون وصف المجتمع بناء على تلك الصورة وصفاً حقيقياً فإذا أظهرت الصورة انسجاماً بين العرف العام والنظام أي كانت الأفكار والمشاعر من جنس النظام قلنا:إن هذا المجتمع متجانس وإن هناك انسجاماً تاماً بين الراعي والرعية.

وإن أظهرت الصورة علاقات حسنة ومشاعر طيبة وقيم رفيعة ومثلاً عليا ونظام يرعى هذه الأمور قلنا: إن هذا المجتمع مجتمع راق وإنه مجتمع ناهض والعكس صحيح فالمجتمع المضرب العلاقات المشتت الأفكار البليد الإحساس المختلف المشاعر الكاره للنظام والعامل على تقويضه والمحكوم بالحديد والنار وكم الأفواه وحز الأعناق وقطع الأرزاق تسوده الأنانية وتنتظمه اللامبالاة ماذا يسمى مثل هذا المجتمع؟ وهذا ما عليه كافة المجتمعات في عالمنا الإسلامي بالرغم مما في هذه المجتمعات من جامعات وكليات ومعاهد ومدارس وبالرغم مما في هذه المجتمعات من متعلمين وخريجين وحملة شهادات عالية وبالرغم مما حبا الله هذه البلاد من موارد طبيعية وثروات فإنها تسمى بالعالم الثالث أو الدول النامية أو الشعوب المتخلفة.

والأمثلة على ذلك كثيرة وواضحة فما من مصدر للثروة إلا ولنا فيه الحظ الأوفر فالنفط والغاز الطبيعي وما في باطن الأرض من معادن على اختلافها والزراعة والثروة الحيوانية على تعددها ومصادر الطاقة وتوفرها وأحجار المرمر والعقيق وصخور الرخام وغير ذلك مما من الله سبحانه وتعالى به علينا لم تحظ به أمة من الأمم أو شعب من الشعوب.

ناهيك عن الأيدي العاملة وكثرتها وحملة الشهادات والاختصاص في كل من المجالات قد ملئوا الدنيا بحثاً عن لقمة عيش أو حياة كريمة كل ذلك و لم يغير من واقع تلك المجتمعات شيئاً و لم يرتقي بها إلى المكان اللائق بها بل إنها ما زالت تهوي انحداراً وانحطاطاً حتى بلغت الدرك الأسفل أو تكاد ذلك لأن هذه الأمور ليست هي الأساس في النهضة أو في انتقال المجتمع من حال إلى حال أفضل ولأنها ليست الأساس الذي يقوم عليه المجتمع ولا هي من مقوماته فتقويم المجتمع يتوقف على مقوماته ومقومات المجتمع هي الأسس التي تبنى عليها العلاقات الدائمة وما يضبطها ولذلك كان تقويم المجتمع متوقفاً على معرفة ما فيه من أفكار ومفاهيم وما ينبثق عن هذه الأفكار والمفاهيم من مشاعر وقيم. ثم معرفة ما يضبط العلاقات من نظم وقوانين ولا علاقة للثروات الطبيعية أو غيرها في تقويم المجتمع: أي بيان قيمته ودرجته في سلم الرقي أو الانحطاط.

وبنظرة دقيقة إلى هذه المجتمعات التي في عالمنا الإسلامي نجد بأنه بالإضافة إلى الانحطاط الفكري والتلبد الحسي والاضطراب النفسي بمحاولة التوفيق بين ما في نفوس الناس وما ينظم علاقاتهم وتسميم أفكارهم بأفكار غريبة عنهم بالإضافة إلى ذلك فإن اختلاف أو تناقض ما عندهم مع النظام المطبق عليهم جعل القلق والإضراب أساس في حياتهم وجعل القائمين على النظام يلجئون إلى البطش والقوة باستعمال الحديد والنار لإجبار الناس على الخضوع للنظام وتسير علاقاتهم وتصرفاتهم تبعاً للقوانين المفروضة عليهم مع مخالفتها لعقيدتهم وأفكارهم وجعل الناس يلجئون للنفاق ومسح الجوخ أو إلى التآمر وحبك المؤامرات أو حتى الاستعانة بالشيطان لتخليصهم مما هم فيه ورفع تسلطهم عنهم وما زال الأمر كذلك من ترويض الناس وإذلالهم حتى يقبلوا بما ينفذ عليهم هذا هو واقع ما تعانيه المجتمعات في عالمنا الإسلامي فساد الاضطراب في

الأفكار وتبلد في الإحساس واختلاف المشاعر وعداء مستحكم بين الناس والنظام حتى بات القائمون على النظام هم العدو الأول لجمهرة الناس فأين هذا من قوله ﷺ: «**الإمام جُنَّة يقاتل من ورائه ويتقى به**»[1] أو قوله ﷺ: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم**»[2] أو كما قال... الحديث.

[1] رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

[2] رواه مسلم والترمذي والدارمي. وقد رووه عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ ونص الحديث هو «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم قيل يا رسول الله ألا ننابذهم بالسيف فقال لا ما أقاموا فيكم الصلاة وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة**».

الإنسان

ولما كان البحث في الإنسان ومعرفة رقيه وانحطاطه ومعرفة عنوان ذلك من أعماله وتصرفاته فرداً كان أو جماعة لأن البحث في الإنسان من حيث هو إنسان.لهذا كان لا بد من معرفة هذا الإنسان على حقيقته لمعرفة متى يكون منحطاً أو راقياً ومعرفة الإنسان تقتضي معرفة الباعث على الأعمال والتصرفات ومعرفة المسير لها ومعرفة الضابط لسلوك هذا الإنسان وانسجامه مع سلوك الجماعة من حوله.

نعم إن النظرة للإنسان جزء من النظرة لهذا الكون وما فيهمن حياة إلا أن الإنسان الذي احتوى الكون في تكوينه يختلف عن غيره من المخلوقات بصفات وخصائص لا يشاركه فيها غيره فإنه بالرغم من أنه من مادة الكون ومن الحياة التي تدب على هذا الكون إلا أنه يختلف اختلافاً كلياً عنه بما اختصه الله به من عقل وما وهبه من إدراك كان السبب في تسخير ما في الوجود لهذا الإنسان رحمة من الله وفضلاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[1]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[2]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾[3].

إلى غير ذلك من الآيات التي بينت ما تفضل الله سبحانه وتعالى به على هذا الإنسان من نعمة العقل والإدراك وما تبعها من تسخير ما في الوجود إليه والانتفاع بما يشاء كلما وجد إلى ذلك سبيلاً.

فالإنسان كائن حي فيه كل ما في الكائن الحي من خصائص فهو ينمو ويكبر ويغدو ويروح ويتوالد ويتكاثر ويحافظ على نفسه ويدافع عنها ويحس بالعجز والاحتياج فيسعى لتغطيته كما أنه يشعر بالعطف والحنان والأبوة والبنوة كما يشعر بالخوف والأمان وحب الذات وحب السيطرة وحب الامتلاك وهو يغضب ويرضى ويفرح ويحزن إلى غير ذلك من الأحاسيس التي تولد عنده الرغبة وتجعل عنده الحافز للاندفاع في سبيل إشباع هذه الرغبات وسد هذه الجوعات التي نتجت عن الطاقة الحيوية الكامنة في نفسه كما أن هذا الجسم الذي يشبه الموتور يحتاج في حركته وسيره وبناء تكوينه وإصلاح ما تلف وطرح ما يضر من نفايات فإن الطاقة الحيوية الموجودة تدفعه للحصول على الغذاء والماء كلما احتاج الجسم لشيء منها أو طرح ما احترق أو أتلف فيه. ولهذا فإن هذا الإنسان منذ أن يولد وإلى أن يموت وهو في حركة دائمة

[1] سورة الجاثية: ١٣.

[2] سورة إبراهيم: ٣٣.

[3] سورة إبراهيم: ٣٢.

دائبة ويحتاج بسبب ذلك إلى ما تحتاجه هذه الحركة من طاقة وما تتطلبه من عناصر وأدوات ولهذا كان الإنسان مشغولاً دائماً في تأمين حاجة أو سد جوعة طلبها هذا الجسم في بنائه العضوي أو بنائه الغريزي مثله مثل أي كائن حي. إلا أنه يختلف عن غيره من الكائنات الحية بالكيفية التي يتم فيها الحصول على ما يشبع جوعته وكيفية إشباعه لها فالكائنات الحية تتصرف برجع غريزي حسب ما فطرها الله عليه: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[1].

فهي تتصرف بخواص معينة لتحافظ على حياتها أو تحافظ على بقائها وبقاء نوعها أو لتسديد جوعاتها بأساليب ووسائل محيرة مذهلة. أما الإنسان فإنه يختلف عنها فهو يتصرف بناءً على العقل الذي منحه الله وليس بمجرد الرجع الغريزي كما هي الحال في غيره من الكائنات الحية فهو حين يندفع لإشباع جوعة أو سد حاجة أو تحقيق متعة فإنه إنما يندفع بناء على إدراك عقلي وتكوين مفهوم عن الشيء الذي اندفع إليه هل فيه قابلية الإشباع؟ وهل يجوز له أن ينتفع به أو لا يجوز؟ فلا يقدم على أمر من الأمور حتى يطرح على نفسه سؤالين اثنين.

السؤال الأول: هل في هذا الشيء ما يشبع جوعته أو يسد حاجته أو يرضي رغبته؟ والإجابة على هذا السؤال تتوقف على ما عنده عنه من مفاهيم فإذا كان مفهومه عنه بأنه يشبع جوعة أو يسد حاجة أو يرضي رغية سواء كون هو هذا المفهوم أو أخذه عن غيره فبمجرد وجود هذا المفهوم عنده يحصل في نفسه ميل إليه وتضغط عليه الجوعة لأخذه وقضاء أربه وهذا ما نسميه المفهوم عن الشيء إلا أنه يتوقف عن مباشرة أخذه والانتفاع به حتى سمع الإجابة عن السؤال الثاني وهو هل يجوز له أن ينتفع بهذا الشيء ويشبع جوعته منه أم لا يجوز؟ فإذا كان الجواب بالنفي مال عنه وصرف ميله أو حاول صرف ميله عنه لأنه لا يجوز أن ينتفع به أو يسد جوعته منه وأما إذا كانت الإجابة بالإيجاب أي أنه يجوز له أن ينتفع به فإنه يتناوله ويقضي منه أربه ويسد به جوعته وهذا ما نسميه المفهوم عن الحياة.

ولذلك كان المسير لسلوك الإنسان مفاهيمه عن الأشياء من حيث أنها تشبع أو لا تشبع ثم مفاهيمه عن الحياة من حيث إنه يجوز له الإشباع أو لا يجوز.

والمفاهيم عن الأشياء تكاد أن تكون واحدة عند بني البشر ولا اختلاف فيها بينهم إلا باختلاف الأذواق والرغبات لذا فإنه من حيث المفاهيم عن الأشياء ومعرفة ما فيها من خصائص وفوائد فهي واحدة عند بني الإنسان ولذلك فلا أثر لها في سلوك الإنسان من حيث رقيه وانخفاضه فالفواكه بأنواعها والخضراوات على اختلافها واللحوم بشتى صنوفها ومعرفة أن الأنثى تشبع جوعة النوع وأن العبادة تشبع جوعة التدين وأن الملابس تقي من البرد أو من الحر أو يتزين بها كل هذه المفاهيم عن الأشياء واحدة عند بني الإنسان لأنها معارف علمية أو إدراك لما في الأشياء من خاصيَّات أي أنها تشبع جوعة ما أو لا تشبع.

---

[1] سورة الأعلى: ٣.

وأما المفاهيم عن الحياة أي يجوز الإشباع من هذا الشيء أو لا يجوز فهذا أمر خارج عن ذات الشيء وخارج عن ذات الإنسان بل يقتضيه الرجوع إلى القاعدة أو القواعد التي جعلها مقياساً لأعماله ومعياراً لتصرفاته أي الرجوع إلى وجهة نظره في الحياة من حيث الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه ووجهة نظر المسام في الحياة هي الحلال والحرام ولهذا حين تصل عنده جوعة ما كجوعة المعدة مثلاً ورأى وعاء فيه طعام فعرف أن هذا طعام صالح للأكل أي حصل على مفهوم عن هذا الطعام بأنه يؤكل فإنه يحصل ميل عنده إلى هذا الطعام ولكنه لا يأخذه حتى يجاب عن السؤال التالي: هل يجوز له الانتفاع به أم لا يجوز؟ أي إنه يسأل نفسه هل حلال له أن يأخذه ويأكله أم حرام عليه ذلك؟ فإذا عرف أن هذا الطعام فيه ما يخالف المقياس الذي رجع إليه أي وجهة نظره في الحياة كأن عرف أنه نجس أو فيه لحم خنزير أو أن صاحبه لا يأذن بذلك ففي مثل هذه الحالة يمتنع عن أخذه بالرغم من ميله إليه ويحاول أن يبعد عنه هذا الميل ومثل هذا مثل أي شيء قد يتعرض له الإنسان عند إشباع أي جوعة من جوعاته أو رغبة من رغباته سواء أكانت من الجوعات العضوية كالأكل والشرب أو من الجوعات الغريزية كالعبادة والنوع والبقاء.

ومن هنا نقول: إن أعمال الإنسان جميعها مقيدة بمقاييس وقواعد آمن بها وحددها وجهة نظره في الحياة أي عقيدته وأن كل عمل من أعماله مسير بمفهوم عن الحياة من حيث الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه سواء أكان هذا العمل أساسياً أم فرعياً عظيماً أم حقيراً قيماً أو تافها فكانت عقيدته هي القاعدة الأساسية لأفكاره ومفاهيمه عن الحياة ومنها انبثقت كافة أنظمة حياته ومنها أخذ وجهة نظره في الحياة ومنها اتخذ قواعد ومقاييس يميز بها الخبيث من الطيب والغث من السمين.

وهذا ما يمتاز به الإنسان عن غيره من الكائنات الحية وهذا ما ارتقى به عن سائر المخلوقات عقل يدرك الأشياء من حوله ويكون له وجهة نظر في الحياة عقل صدق بأفكار وآمن بها فأصبحت مفاهيم لديه تحدد سلوكه في الحياة وتضبط تصرفاته حين إقدامه على إشباع جوعاته وإرضاء رغباته.

ومن هنا كان الحكم على هذا الإنسان من خلال أعماله هو حكم على ما آمن به من أفكار وما اتخذ لنفسه مقاييس وما جعله له من وجهة نظر في الحياة والحكم على هذه الأفكار يقتضي وجود قواعد ومسلمات عقلية يرجع إليها حين إصدار الحكم.

ومن هنا كانت المسألة لمعرفة إنسان ما هل هو إنسان راق أم منخفض هي محاكمة لأفعاله وتصرفاته بقياسها إلى ما عندنا من مفاهيم و قناعات عن الأفعال والتصرفات الراقية وأضدادها من مثل التضحية والإيثار والجود والنخوة والوفاء ومن مثل حسن الجوار والصدق في المعاملة والإخلاص و الإحسان إلى غير ما هنالك من مقاييس يستعملها الناس في تقرير حقيقة الأعمال كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ

وَالْبَغْيِ﴾[1]. ومثل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ﴾[2].

قال رسول الله ﷺ: «**لأن يهدي الله رجلاً على يديك خير لك مما طلعت عليه الشمس**» وفي رواية: «**خير لك من حمر النعم**» أو كما قال[3].

[1] سورة النحل: ٩٠.

[2] سورة البقرة: ١٧٧.

[3] رواه الطبراني عن أبي رافع.

الأفكار والمفاهيم

الأفكار هي التعبير عن واقع معين محسوس في الخارج أو واقع متصور في الذهن أنه موجود في الخارج أي هي حكم على واقع معين يعبر عنه بأية وسيلة من وسائل التعبير فإن أدرك معنى هذا الفكر أي أدرك الواقع المحكوم عليه وانطبق عليه الحكم تماماً وجرى التصديق به بانطباق الفكر على واقعه صار هذا الفكر مسير للسلوك المتعلق بهذا الواقع أي أدرك معنى الفكر وجرى التصديق به فصار الفكر مفهوماً أما إن لم يدرك معناه، أو لم يجر التصديق به. فإن هذا الفكر أو التعبير عن الفكر يبقى مجرد معلومات مختزنة في الدماغ، قد يحتاجها الإنسان حين وجود واقع لها أو الرد عليها. أما ان كان التعبير أو اللفظ ليس له واقع، أو لا يعقل أن يكون له واقع، أو لا يستطيع أن يتصور له واقع له، فإن ذلك التعبير يكون خيالاً وأوهام وخرافات.

هذه هي مجموعة المعارف التي يمتلكها الإنسان. فهي باختصار:

أ – معرفة أدرك واقعها إدراك حقيقياً وجرى التصديق بالنطباق تلك المعرفة على واقعها تصديقاً جازماً أي حصل اليقين بانطباق تلك المعرفة على واقعها. بناءاً على دليل عقلي أي حكم العقل الإنساني بحتمية انطباق هذه المعرفة على واقعها. إما بحكم مباشر من العقل، كالحكم على الأشياء الحسية الملموسة من حيث وجودها.

ويدخل تحت هذا النوع أفكار العقيدة الأساسية كالإيمان بوجود الله، والإيمان بالقرآن الكريم أنه كلام الله، والإيمان بنبوة محمد ﷺ. والإيمان بالقضاء والقدر. أو الأفكار المتعلقة بالأشياء المحسوسة الملوسة التي نتعامل بها، من حيث الوجود.

أو بحكم عقلي استناداً على دليل نقلي ثبت أصله بالعقل كأفكار العقيدة التي لا تقع تحت الحس كالإيمان بالملائكة والبعث والجنة والنار والحساب وغير ذلك أو الأخبار التي يقطع العقل يقيناً باستحالة بطلانها أو كذبها كالأخبار المتواترة.

ب – يأتي بالمرتبة الثانية من هذه المعارف معارف جرى التصديق بها وإدراك واقعها لكن هذا التصديق فيه شيء من المظنة، حيث أنه لم يبلغ حد اليقين، فالعقل لم يقطع يقيناً بصحة ما نقل إليه. فلم يستطع أن ينفي احتمال الخطأ أو النسيان أو أن ما نقل إليه يحتمل أكثر من معنى، فاكتفى بترجيح أحد المعاني التي يحتملها النص. وذلك كالمفاهيم الشرعية. وكالمعارف العقيدية المستنبطة من أخبار الآحاد. أو الأحكام الشرعية المستنبطة من الأدلة التفصيلية. أو المعارف التاريخية أو اللغوية أو غير ذلك مما يترجح فيها جانب الصواب.

جـــ – معرفة لم يدرك واقعها، أو لم يدرك مدى انطباقها على واقعها. أي أن العقل يمكن أن يتصور لها واقع ويمكن أن تنطبق على هذا الواقع.. إذن فهي فكرة، أي هي حكم على واقع معين، ولكن لم يجر التصديق بها أي لم يجر التصديق بانطباقها على هذا الواقع. وهذه الأفكار كثير جداً في واقع حياتنا التاريخية بشكل عام، والمعارف الجغرافية الفلكية ويتساوى بها التصديق وعدم التصديق ومثل هذه المعارف هي أفكار. أي هي أحكام على وقائع معينة. وتتحول كل معرفة فيها إلى مفهوم حين الحصول على دليل يثبت صحة هذه الأفكار وانطباقها على واقعها. سواء أكان هذا الدليل عقلياً كالمشاهدة مثلاً، أو كان دليلاً نقلياً نثق بصدق من نقله إلينا.

د – معرفة لم يدرك واقعها أو أنها لا تنطبق على الواقع الذي وصفته فمثل هذه المعارف تبقى مختزنة في الذهن كمعلومات فقط، فلا ترقى لأن تصبح أفكار أو مفاهيم قد يحتاجها الإنسان في حالات معينة كإثبات بطلانها، أو كشف خطئها. مثل المعارف عن المبدأ الرأسمالي، والحرية والديمقراطية والشيوعية وغير ذلك من المعلومات.

فالواقع الذي تتحدث عنه الشيوعية مثلاً بالنسبة للتفكير واقع مدرك، ولكن الحكم على هذا الواقع بأنه انعكاس المادة على الدماغ حكم خاطئ لا ينطبق على واقع التفكير.

والواقع الذي تتحدث عنه الرأسمالية بالنسبة للديمقراطية. من حيث أنها حكم الشعب بالشعب إن مثل هذا الواقع مدرك ولكن حكمها عليه حكم خاطئ، لأن حكم الشعب بالشعب لا يتحقق. لأن الشعب لا يضع دستوره وقوانينه، وإنما يضع ذلك فئة معينة من الناس.

هـــ – معرفة ليس لها واقع ولا يمكن أن يتصور لها واقع وبالتالي لا يمكن أن يبحث فيها من حيث انطباقها على واقع أو عدم انطباقها. وهذه هي الأوهام والخرافات والتخيلات. مثل المعارف عن الغول والعنقاء والعيش على الكواكب والنجوم إلى غير ذلك من الأوهام والخرافات.

هذه هي حقيقة مجموعة المعارف التي يمكن أن يكتسبها الإنسان في حياته. سواء اكتسب هذه المعارف بالتجربة أو الاستنتاج أو بالتلقي والاستنباط. أو قرأها من كتاب أو سمعها من شخص غيره أو اكتسبها بأية وسيلة أخرى إلا أنه حين يكتسب أية معرفة فإن الأصل من تلقيه لها أن يتلقاها فكرياً بحيث تصبح من معارفه هو. ولو أن مصدرها غيره. والمقصود من القول أن يتلقاها تلقياً فكرياً أن يفهم معاني الألفاظ والجمل التي يقرأها أو يسمعها أو يراها، فيحاول أن يتصور لذلك واقع محسوساً. ثم يجري محاولة تطبيق ما قرأ أو سمع على ذلك الواقع المتصور، أو المعبر عنه، فإن انطبق عليه كان قابلاً للصواب، أو هو الصواب وأصبحت مفاهيم له تؤثر في سلوكه وتضبط تصرفاته حين يقوم بإشباع جوعاته، أو تحقيق رغباته. أما إن تعذر تصور واقع له، أو تعذر انطباقها على الواقع المتصور، فإنه ينكره، ويبقيه في ذهنه مجرد معلومات أثبت

بطلانه. أو تعذر عليه إثبات صحتها. وبالتالي لم يجري تصديقاً بها فلا تكون مفهوماً عنده ولا تؤثر على سلوكه أو تصرفاته.

كان الدافع لإيراد هذه المعاني للمعارف الإنسانية والتفريق بينها هو ما للمفاهيم من أثر على سلوك الإنسان وتصرفاته، سواءً منها المفاهيم عن الأشياء أو المفاهيم عن الحياة. وإن سلوك الإنسان وتصرفاته في إشباع جوعاته، وتحقيق رغباته هو عنوان رقيه أو انخفاضه أو انحطاطه فإما أن يسموا فيكون أفضل من الملائكة أو ينحط فيكون أضل من البهائم. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]. ولهذا كان لا بد من معرفة الأفكار والمفاهيم معرفة تجعلنا نميز فيه الأفكار الصائبة من الخاطئة. ومعرفة الأفكار الراقية وتمييزها عن الأفكار المنحطة، ومعرفة الفكر السطحي والفكر العميق والفكر المستنير، لكي تكون مفاهيم الإنسان وأفكاره مفاهيم صائبة راقية، تلقاها بوعي واستنارة، فارتفع بها إلى مستوى ما أراد الله له. أي ارتفع بها إلى مستوى الإنسان.

وبنظرة دقيقة للتمييز بين الأفكار والمفاهيم من حيث الرقي والانحطاط، لا بد من وجود قاعدة أو قواعد يجري على أساسها الحكم على تلك الأفكار والمفاهيم. وبناءاً على تلك القاعدة أو القواعد يجري تصنيف الأفكار والتمييز بين الغث والسمين القوي والسقيم، الصحيح والخطأ فهي المقياس الدقيق الذي يجب أن نحتكم إليه في فهم كل فكر ومعرفة كل مفهوم وإلا امتزجت الألوان واختلطت الرؤيا وحار الإنسان بين الصالح والطالح وبين الخير والشر وبين الجميل والقبيح. فما هي هذه القواعد والمقاييس التي نريد أن نحتكم إليها؟ والتي بها يتقرر الرقي أو الانخفاض؟

والجواب: إن موضوعنا هو إنسان يعيش في هذا الوجود في هذه الحياة يريد النهضة والارتقاء والسير في طريق الكمال فهل يستطيع أن يحقق ذلك دون معرفة معنى وجوده في الحياة ومعنى هذه الحياة الزمنية التي عليه أن يقضيها؟ خصوصاً وهو يرى أنه فرد من بني الإنسان يعيش مع مجموعة من البشر، مع غيرهم من الكائنات الحية على هذه الأرض ضمن المجموعة الشمسية في هذا الوجود الواسع!!

هناك فرق شاسع بين أن ينظر الإنسان لنفسه بأنه زيد ابن عمرو وبين أن ينظر لنفسه أنه إنسان، هذا الفرق الشاسع يبدو واضحاً جلياً لو تتبعنا بعض الخطوات فيه. فمنتهى الانحطاط حين ينظر تلك النظرة الأنانية الفردية، تلك النظرة التي هي رجع لغريزة البقاء، وما أكثر مظاهر غريزة البقاء وقد تتسع نظرته قليلاً فيخرج عن أنانيته فينظر أنه ابن عمرو وله اخوة وعائلة أي أنه فرد في أسرة يحبها ويحب سيادتها وهذا مظهر آخر من مظاهر غريزة البقاء أي أنه مازال يتصرف تبعاً للرجع الغريزي، وقد تتسع هذه النظرة لتشمل عشيرته أو قبيلته أو لتشمل القرية أو المدينة التي يعيش فيها وهذا واضح جداً عند أولئك الذين يقترن اسم مدينتهم أو قريتهم فيقال زيد الخليلي وعمرو البغدادي، وقد يتسع أكثر من

[1] سورة الفرقان: ٤٤

ذلك ليصبح وطنياً ينتمي إلى التراب والأرض فيقال المصري أو الشامي أو الهندي أو غير ذلك وقد تتسع دائرة أفقه وتطلعاته لتشمل القوم الذين ينتمي إليهم فيصبح قومياً، كل هذا و لم يرتقي بعد ليصل إلى مستوى إنسان، كرمه الله وخلقه في أحسن تقويم فلم ينظر لنفسه أنه إنسان يعيش مع غيره من بني البشر.

من هذه النظرة الأساسية للوجود والحياة والإنسان نستطيع التمييز بين الفكر الراقي والفكر المنحط أو المنخفض فلو رسمنا خطاً بيانياً وجعلنا أدنى مستوى للفرد الراقي علامة الصفر، لكانت تلك العلامة تشير إلى النظرة إلى الإنسان من حيث هو إنسان. أما ما دون هذه النقطة فإنه بداية انحدار من القومية إلى الإقليمية إلى العشائرية حتى يصل النهاية. أي الأنانية الفردية نزولاً، وأما ارتقاء فإنه يبدأ من النظرة إلى الإنسان من حيث هو إنسان حتى يصل بنظرته إلى أرقى منزلة له، أي إدراكه أنه عبد الله فالنظرة إلى الإنسان من حيث هو إنسان فكر راقي أو هي بداية الرقي الفكري، وما دون هذه النظرة هو فكر منحط أو منخفض، وأما التدرج في سلم الرقي ومحاولة النهوض بهذا الإنسان فهو الإجابة على السؤال الآخر وهو معرفة معنى وجود الإنسان في الحياة وأي بحث أو فكر لتحديد معنى الحياة ومعنى وجود الإنسان فيها فهو بحث راقي بغض النظر عن النتائج التي يتوصل إليها. وأنه فكر يؤدي إلى النهضة، بغض النظر عن أنها نهضة صحيحة أو خاطئة.

ومن هنا كان المقياس الأول في رقي الفكر أو انخفاضه أو انحطاطه هو الشمول. فان كان الفكر شاملاً للواقع المبحوث عنه، لا لفرد من أفراده، أو حالة من حالاته، أو ظرف من ظروفه. كان هذا الفكر حائزاً على صفة من صفات الفكر الراقي – أي صفة الشمول. وإلا فلا. وأما الصفة الثانية من صفات الفكر الراقي فهي العمق في البحث، والبدء من البدء، بحيث يصل إلى الأساس الحقيقي للشيء المبحوث عنه. أي حين ينظر للوجود أو للحياة أو للإنسان، فلا يأخذ مظهراً من مظاهره، بل لا بد أن تكون نظرته عميقة لمعرفة الأساس الذي نشأ عنه هذا الواقع المنظور إليه، فإن نظر مثلاً إلى الإنسان فلا بد أن تكون نظرته إلى نوع الإنسان منذ البداية، وهذا يحتم معرفة أن هذا الإنسان أزلي أم مخلوق لخالق، ثم ينتقل لمعرفة ما يتكون منه هذا الإنسان وما يميزه عن غيره من الكائنات الحية. إلى معرفة الدوافع التي تجبره على الحركة والعمل، وهل هو في عمله مجبراً أم مخيراً، إلى غير ذلك من الأمور التي تجعله يكون فكرة أساسية عميقة عن هذا الإنسان وهو حين يتناول هذا البحث لا يتناوله للترف الفكري، أو الرأي الفلسفي أو لزيادة المعلومات، بل يتناوله لأنه إنسان يعيش هذه الحياة في هذا الوجود الواسع، يريد أن يعرف معنى وجوده في الحياة. ولا يمكنه التوصل لمعرفة ذلك، إلا إذا عرف بدء هذا الوجود الذي يعيش فيه، وإلى أين يسير وبناء على إجابته على ذلك – بغض النظر عن الصح والخطأ، يتحدد سلوكه وتنتظم تصرفاته. وهذا العمق في البحث هو الصفة الثانية للفكر الراقي. ومنه نخلص إلى تقرير حقيقته، وهي أن الفكر الراقي هو الفكر الذي يتصف بالعمق والشمول. وهو الفكر الذي يليق بالإنسان كإنسان، وهو الفكر المؤدي إلى

للنهضة، وهو الفكر الصالح للإنسان إذا أراد أن يسير في طريق النهضة والرقي. وإلا فهو ينحدر إلى درك الحيوان. بل الحيوان خير منه. ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

ولذلك نجد التوجه من رب العالمين لهذا النوع من التفكير في مئات من الآيات. ففي مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۞ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[2]. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[3] ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[4]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[5] ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[6] ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾[7] ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾[8] ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[9]. إلى غير ذلك من الآيات التي تخاطب قوى الإنسان العاقلة. تخاطبه كإنسان وتلفت نظره لما حوله من حياة، وتشد انتباهه إلى هذا الكون الواسع الذي يعيش فيه. كما تلفت نظره إلى الشيء ومصدره. ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[10] ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[11].

---

[1] سورة الفرقان: ٤٤.

[2] سورة ق: ٦-١١.

[3] سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١.

[4] سورة يس: ٣٢.

[5] سورة الحج: ٧٣.

[6] سورة الطور: ٣٥

[7] سورة الواقعة: ٦٨-٦٩.

[8] سورة الانفطار: ٦-٧.

[9] سورة الانشقاق: ٦

[10] سورة الطور: ٣٥.

[11] سورة الأنبياء: ٣٠.

هذا من حيث الرقي والانخفاض في التفكير. أما من حيث التمييز بين الفكر السطحي والفكر العميق والفكر المستنير فهناك مقاييس أخرى، وقواعد يرجع إليها لمعرفة مستوى هذا الفكر. مع أنه فكر، وأنه حكم على واقع ومهما بلغت به السطحية يبقى فكراً ويمتاز عن الرجع الغريزي، ويمتاز عن التقليد والمحاكاة ويرتفع بصاحبه إلى مستوى إنسان. والنظرة إلى الإنسان من حيث هو إنسان. فهو نتاج عقل بشري، وثمرة جهد عقلي إلا أنه لا يصلح للنهضة، ولا للسير في طريق الكمال، أو الانتقال بالمجتمع والفرد من حال إلى حال أفضل، فالفكر السطحي هو أن تحكم على أبسط ظواهر الأشياء والوقائع دون معرفة ذلك الشيء أو الواقع والتفقه فيه، كمعرفة كنهه، أو الأساس الذي انبثق عنه، أو الظروف المحيطة به، أو المعلومات المؤثرة فيه، ودون محاولة الحصول على معلومات تفسر هذا الواقع. أو النظرة فيما لديه من معلومات مفسرة له، ويمتاز حملة هذا الفكر بالسطحية والسذاجة، وما أسهل أن يخدع أمثال هؤلاء بالمظاهر الخادعة والكلام المعسول والوعود الكاذبة كما أن المجتمع الذي تسوده مثل هذه الأفكار السطحية يبقى بيد قادته وزعمائه، يقاد بخطبة رنانة ويثور بهزة مشاعر ويرضى بأقل مكسب، وما أصدق من وصف أحد هذه الشعوب بقوله "تجمعهم طبلة وتفرقهم عصا". وما أكثر الأمثلة في مجتمعنا على مثل هذه السطحية وما أكثر ما اندفع الناس وراء أفكار ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب. حتى تمكن القادة والزعماء من ترويض الناس، وإيصالهم إلى حالة من اليأس والقنوط يقبلون بها أي حل يرتضيه القادة والزعماء. وأقرب مثال على سطحية الناس هو سهولة انقيادهم وراء سراب خادع ومظهر زائف. وتكرار هذا الأمر مراراً. وخير مثال على ذلك قضية فلسطين والظروف والملابسات التي مرت بها منذ وجدت وحتى الساعة، وما زال المجال مفتوحاً أمام القادة والزعماء باتخاذها وسيلة يصلون بها إلى أغراضهم، أو تنفيذ رغباتهم أو رغبات أسيادهم، بإيصال الأمة إلى حالة من اليأس والاستسلام مع أنها لا تختلف كثيراً عن بقية بلاد المسلمين، وقضيتها هي نفس القضية ولا تختلف إلا من حيث المظهر المنظور إليه، فكلها أي أقطار المسلمين تعاني ما تعاني منه فلسطين. وعملية الترويض للمسلمين واحدة وإن تعددت مظاهرها فسوريا ولبنان والعراق وإيران وباكستان والمغرب والجزائر والسعودية واليمن سواء. شعب يراد له الترويض والرضى بأحكام الكفر.

إن الفكر السطحي كما قلنا هو حكم على أبسط ظاهره من واقع معين دون الالتفات إلى حقيقة هذا الواقع أو بذل الجهد لمعرفة الواقع معرفة حقيقية مع معرفة أسبابه ومسبباته، ومعرفة الأساس الذي انبثق عنه، أو بنى عليه. وبالتالي عدم معرفة ظروفه وأحواله وما يتعلق به. مثال: حين نسمع ضجيجاً في الشارع نخرج لنرى جمهرة من الناس ترفع لافتات وتهتف بهتافات، فمن السطحية أن نكتفي بالقول بأنها مظاهرة وأرقى من ذلك أن نعرف ماذا تريد وذلك ببذل الجهد لقراءة ما كتب على اللافتات، أو ما يهتف به الجمهور، وأرقى من ذلك أن نبذل الجهد في معرفة من وراءها وأي الأحزاب يقودها، والأرقى من ذلك أن نعرف الأهداف الحقيقة التي تختفي وراء هذه المظاهرة وما هي الظروف والأحوال التي دفعت هذا الحزب للتظاهر، ولا بد من بذل الجهد لمعرفة ما إذا كان وراء هذا الحزب القائد للمظاهرة جهة أخرى تدفع هذا الحزب للتظاهر لتحقيق غاية معينة.

كل هذا لا بد منه. حتى إذا أصدرنا حكمنا عليها كان صواباً أو أقرب للصواب. ويكفي أن حكمنا كان عميقاً فلم يقتصر على مظهر واحد من مظاهر هذا الواقع. بل بذلنا الجهد لمعرفة الواقع معرفة حقيقية، فبحثنا عن الدوافع والغايات والظروف والأحوال وما يتعلق بهاذ الحدث ثم أصدرنا الحكم.

مثال آخر: شاب يريد أن يتزوج فرأى فتاة جميلة، فحكم على مظهرها أنها تصلح زوجة له، هذا حكم سطحي. وأرقى من ذلك أن يعرف هل هي متزوجة أم لا؟ أهي صحيحة الجسم أم معتلة؟ أهي سليمة النطق أم خرساء؟، أهي صالحة للإنجاب أم أنها عقيم؟ وأرقى من ذلك أن يعرف أهلها من أبوها؟ ما البيت الذي تعيش فيه، والأرقى من ذلك أن يعرف وجهة نظرها في الحياة وما معتقدها؟ وما الفكر الذي تحمله؟ فان استوفى هذا البحث، وتفقه في هذا الواقع، صار حكمه على هذا الواقع راقياً وقريباً من الصواب.

مثال آخر: حين نستمع إلى نص أو نقرأ موضوعاً، فإن كانت قراءتنا أو استماعنا لذلك النص لقتل الوقت والاستمتاع، أو دون روية وعمق في إدراك المعاني، أو لم تكن لنا القدرة على ذلك فان حكمنا على هذا النص حكم سطحي. أما حين ننظر إلى صياغته الأدبية وبذلنا الوسع في معرفة مطابقته لقواعد اللغة، فلنا أن نحكم عليه من ناحية أدبية، ولكن حين نحاول تدبر معانيه، ومعرفة الواقع الذي ينطبق عليه ومعرفة قائله، المناسبة التي قيل فيها، نكون قد أخذنا من هذا النص أو هذا البحث أخذ فكري بعيد عن السطحية، ويكون حكمنا عليه حكم عميقاً بعيداً عن السطحية كذلك.

أما الفكر العميق، فهو حكم على واقع كذلك. إلا أنه يقتضي معرفة الواقع معرفة وعدم الاقتصار على مظهر من مظاهره أو خاصية من خواصه.

فمعرفة الأشياء تقتضي معرفة جزئياتها وخواصها وصولاً إلى تركيبها الذري. وأما معرفة الوقائع والأحداث فلا بد من معرفة أطراف النزاع والأمر المتنازع عليه فيها. والظرف أو الحالة التي جرى فيها النزاع والأسباب المباشرة له، والأسباب غير المباشرة إن وجدت، وأما معرفة النص فإنها تقتضي أمراً آخر. فهي تقتضي معلومات واسعة لتفسير النص وفهمه وبذل الجهد في التمييز بين النص التشريعي والنص الأدبي والنص الجبري إلى غير ذلك. كما يقتضي معلومات واسعة لفهم مدلولات الألفاظ الحقيقية منها أو المجازية. وإدراك معاني الجمل والتراكيب فإن توفرت لدينا هذه المعارف وبذلنا الوسع في محاكمة النص أو فهمه كان حكمنا عليه أو فهمنا له فهماً صحيحاً أو قريباً من الصحة وهذا هو الفكر العميق.

إلا أنه ليس مكتملاً ومازال قاصراً عن استيفاء كل ما يتطلبه البحث. إذ أن لهذه الأشياء والوقائع ظروفاً وأحوالاً تؤثر فيها، ولها متعلقات لا بد من إدراكها مع أن هذه الظروف والأحوال والمتعلقات ليست جزءاً من هذه الأشياء أو الوقائع والأحداث. فالبحث في القصيدة لا يعني معرفة الشاعر، ولا معرفة الظرف الذي قيلت فيه، ومعرفة الانفجار المدمر لا يعني معرفة من وضعه ولا الغاية من وضعه، ولا من أمره بوضعه، والعمق في البحث لا يوصل إلى هذه الأمور لأن العمق في

البحث مقتصر على جزئيات الشيء وتركيبه وقوانينه. أما ما حوله وما يتعلق به، فهذا أمر خارج عن البحث العميق، وإنما يقتضي أثناء البحث تسليط أضواء على ما حول المبحوث فيه لمعرفة ما حوله وما يتعلق به لأنها ليست جزءاً منه.

الفكر المستنير

أما الفكر المستنير فهو الأرقى، وهو الفكر المؤدي إلى النهضة الحقيقية، وهو الفكر الذي يجلي غوامض الأمور، و لم يكتف بمعرفة أصول الأشياء وفروعها، أو الوقائع ومسبباتها أو النصوص ومعانيها كما هي الحال في الفكر العميق إلا أنه يتعدى ذلك لمعرفة ما يحيط بهذه الأشياء وما حولها وما يتعلق بها.

فهو حين يبحث في الشيء فإنه لا يكتفي بالوصول به إلى معرفة وزنه النوعي أو تركيبه الذري بل لا بد من معرفة ظروفه وأحواله أي معرفة القوانين التي تتحكم به. والخواص التي يمتاز بها، والتي يسير بموجبها سيراً جبرياً لا يستطيع الانفلات منها ولا التخلف عنها إلا إذا تغيرت حاله، وتبدلت ظروفه إلى أحوال وظروف أخرى، فتتحكم به القوانين والخواص الأخرى فحين يصل إلى هذا العمق في البحث لا بد أن يسأل عما يتعلق به أي من الذي أخضع هذا الشيء لهذه القوانين وسيره حسب هذه الظروف والأحوال وهذا يعني تسليط الأنوار على أجزاء الشيء والقوانين التي تتحكم فيه،ومعرفة من أخضعه لتلك القوانين ولذلك سمي فكراً مستنيراً أي أنه لم يترك شيئاً إلا سلط عليه الأضواء وبين ما وراءه غير مكتف بالعمق ورافضاً للسطحية التافهة. هذه هي طبيعة الفكر المستنير وما يمتاز به عن الفكر العميق. هذه هي الأفكار التي تتحكم في تصرفات الإنسان وسلوكه، وعلى أساسها تتكون مفاهيمه وميوله، وبها يحدد وجهة نظره في الحياة ويعرف معنى وجوده في الحياة. فهو الذي يختار مكانه ومكانته بين الناس. فهل يرتضي أن يكون منحط التفكير منخفض الإدراك؟ هل يرتضي أن يكون سطحي التفكير قصير النظر؟ هل يغوص في العمق ويترك ألف سؤال وسؤال من حوله هل يتهرب من الإجابة عن ربط الأسباب بالمسببات بقوله صدفة أو طفرة حين يعجز عن التعليل؟ أم أنه يبتغي المكانة التي كرمه الله بها والنعمة التي حباه الله إياها نعمة العقل وكرامة الإنسان. يفكر كإنسان ويستعمل عقله لإدراك الأشياء وجلاء غوامض الأمور ومعرفة الحقائق. فلا بد له من تتبع الأحداث وربط الأسباب بالمسببات ومعرفة ظروفها وأحوالها وتسليط الأنوار الكاشفة لمعرفة ما يتعلق بها، حتى يستطيع السير في طريق النهوض والارتقاء في مدارج الكمال عن عقل وبينة. لهذا ؛ فإننا نقول "ينهض الإنسان بما عنده من فكر عن الحياة والكون والإنسان، وعن علاقتها جميعها بما قبل الحياة الدنيا وعن علاقتها بما بعدها" وهذا يعني أن طريق النهضة هو نظرة الإنسان للإنسان نفسه وللحياة من حوله، في هذا الكون الواسع الذي يعيش فيه، حتى يتمكن من معرفة هذه المرحلة الزمنية التي يحياها الإنسان في هذا الوجود، أي معرفة معنى وجوده في الحياة ولا يتأتى له ذلك إلا إذا تكونت لديه فكرة كلية عن الكون والحياة والإنسان، ليقرر حقيقة ثابتة أهي أزلية خالدة أم أنها مخلوقة؟ فإن تقرر لديه أنها مخلوقه فما الذي قبلها؟ أي لا بد من تكوين فكرة عن هذا الخالق الذي يستند الوجود إليه، كما لا بد من تكوين فكرة كلية عما بعد الحياة الدنيا، فما دام أن لهذه الحياة الدنيا بداية فلا بد أن يكون لها نهاية فما هي؟ وما هي العلاقة بين هذه الأشياء جميعها وبين ما قبلها –أي خالقها–؟ وما العلاقة بينها وبين ما بعدها؟ أي هل أن هناك علاقة

بين الحياة الدنيا وما قبلها؟ وهل هناك علاقة بين الحياة الدنيا وما بعدها؟ وبالإجابة عن كل هذه التساؤلات يمكنه معرفة الحياة الدنيا، أي معرفة المرحلة الزمنية التي يحياها. وبذلك يستطيع أن يعرف معنى وجوده في الحياة، ومعنى هذه الحياة.

أما لماذا حتمية هذه التساؤلات وحتمية الإجابة عليها لتكوين فكرة كلية عنها، ذلك لأن الإنسان مجبر على التعامل معها، ولا يستطيع مطلقاً أن يعيش بمعزل عنها، فهو فرد من بني الإنسان تربطه مع غيره من البشر علاقات حتمية لابد من تصريفها، كما أنه يرى من حوله كائنات حية هو فرد منها، ولا بد له من التعامل معها، وتشاركه العيش على هذه الأرض، في هذا الكون الواسع. وفي هذه الأرض أشياء وأشياء لابد له من استعمالها، ففيها قضاء حاجته، ومنها إشباع جوعته وتحقيق رغبته. خصوصاً وأن الله سخر له ما في الأرض جميعاً، وباختصار إن هذا الإنسان صورة عن الكون بما فيه، فهو يشارك الكون بتركيبه المادي، ويشارك الكائنات الحية بالروح التي تسري فيه، وينفرد هو بالطاقة العاقلة المسخرة لغيرها، والتي هي مناط التكليف. من هنا كان لابد من تكوين فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة. فليعرف نفسه أولاً وليعرف الحياة التي تدب به وبغيره. وليعرف الكون الذي يعيش فيه لعله يستطيع معرفة الحياة الدنيا، وما يترتب عليه في هذه المرحلة الزمنية التي سيقضيها. أي يعرف معنى وجوده في الحياة.

وبدون الإجابة على هذه التساؤلات وتكوين فكرة كلية عن الوجود، بغض النظر عن صحة الإجابة أو خطئها، فإنه يعجز عن تحديد معنى وجوده في الحياة، فيهيم فيها على وجهه، همه إشباع أكبر قدر ممكن من المتع الجسدية لا يختلف عن أي حيوان آخر، إن لم يكن أسوأ حالاً. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1] ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[2].

إن هذه الفكرة الكلية عن الكون والإنسان والحياة لمعرفة معنى الحياة الدنيا الناشئة عن تلك النظرة الفاحصة الشاملة للكون والإنسان والحياة هي ما يطلق عليه العقيدة، حيث عرفت العقيدة بأنها "الفكرة الكلية عن الكون والإنسان والحياة وعما قبل الحياة، وعما بعد الحياة وعن علاقتها جميعها بما قبل الحياة وعلاقتها بما بعد الحياة" ولهذا كانت العقيدة هي الطريق الوحيد لإيجاد المفاهيم الصحيحة عن الحياة الدنيا، ومعرفة هذه المرحلة الزمنية التي يقضيها الإنسان في الحياة ويعرف معنى وجوده وماذا عليه أن يفعل، أي هي التي تحدد له وجهة نظره في الحياة، ومنها تنبثق نظم حياته وضوابط سلوكه وتصرفاته، ولذلك كانت هي القاعدة الأساسية التي تبنى عليها جميع أفكارهم، لأنها لم تترك شيئاً يمكن أن يقع عليه الحس إلا شملته بالفكرة الكلية الناشئة عن النظرة الفاحصة الباحثة، وأعطت الإجابة الكافية عنه سواء ما يتعلق بسلوكه أم بأفكاره، فهي قاعدة أساسية لها لأن الأفكار كما قلنا هي الحكم على الأشياء أو الوقائع أو الأحداث. وهذه هي الفكرة

[1] سورة الأعراف: ١٧٩.

[2] سورة الجاثية: ٢٤.

الكلية قد اشتملت على كل ما يمكن أن يقع عليه الحس، فهي إذن قاعدة أساسية للحكم على أي شيء في الوجود باعتبار أنها أجزاء من تلك النظرة الشاملة لكل شيء في الوجود وأما أفعاله وتصرفاته التي يحتم أن تكون تابعة لوجهة نظره التي كونها عن الحياة، ومعنى وجوده فيها، فهي فرع من معرفة علاقته بما قبل الحياة والمتعلق بمصيره بعد الحياة، فلا بد أن تكون جميع الأفعال والتصرفات –والحالة هذه– فروع انبثقت عن معرفة علاقته من حيث هو إنسان بما قبل الحياة الدنيا – أي علاقة الإنسان بما قبل الحياة، أي بمن أوجده في الحياة، على هذا الكون.

بقيت مسألة: هل كل عقيدة تصلح للنهضة؟ وهل كل عقيدة صحيحة؟

إن كل فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة وعما قبل الحياة وعما بعد الحياة، وعن علاقتها بما قبل الحياة،و عن علاقتها بما بعد الحياة، أي كل عقيدة تصلح أساساً للنهضة لأنها اشتملت على قاعدة أساسية للأشياء وقاعدة أساسية للعلاقات، ومعرفة لوجهة النظر في الحياة ومعرفة لمعنى الحياة، وبالتالي فإنها ترسم الطريق لحاملها للسير في طريق النهوض، أي الارتقاء من حال إلى حال أفضل فرداً كان أم مجتمعاً. ومن هنا كانت العقيدة الشاملة لهذه الأسس جميعها هي أساس النهضة، بل إن النهضة لا تتم إلا بها وعليها. أما إن كانت العقيدة قاصرة أي مقتصرة على جانب دون آخر، وأهملت شيئاً مما يجب أن تشتمل عليه. فإنها لا تصلح بل ولا يصح أن نسميها عقيدة بناءاً على هذا التعريف وإن سميت فالتسمية مجازية ليس غير.

أما إنها فكرة صحيحة، أو قاعدة صحيحة وتؤدي إلى نهضة صحيحة وانتقال بالفرد أو المجتمع إلى حال أفضل. فهذا يتطلب إقامة الدليل على صحة الفكرة أو القاعدة وإقامة البرهان على ذلك، وبما أن العقيدة فكرة، والمبحوث عنه "فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة" فكونها فكرة فإنها تخضع لما يخضع إليه أي فكر يراد معرفة صحته من بطلانه، أي يراد محاكمته ومعرفة انطباقه على واقعه أم مغايرته له. إذ كل فكر هو حكم على واقع، ومن صحة الفكر أن يكون منطبقاً على الواقع الذي أطلق عليه. كما أننا حين نحاكم الأفكار لمعرفة صحتها فلا بد لنا من مقاييس ثابتة ومعايير حقيقية تقرر حقيقة تلك الفكرة على أساسها. ولهذا كان لا بد من معرفة تلك المقاييس والمعايير حتى يكون الحكم واضحاً جلياً.

إن الفكرة حكم عقلي على واقع معين، وحين نقول إنها حكم عقلي فلا بد إذا من الاحتكام إلى العقل أي إلى القواعد العقلية الصحيحة، أي جعل العقل هو الحكم عليها، وأن تكون مبنية عليه أي على ما يقطع العقل السوي بصحته.

فالعقل يقضي مثلاً أن وراء كل أثر مؤثر؛ وراء كل نظام منظم؛ وأن كل منتظم بنظام احتاج إلى من نظمه وأن العاجز عن الكمال محتاج، وأن المحتاج لا يستغني بذاته وأن من يعجز عن سد حاجته هو، فهو عن سد حاجة الآخرين لنفس الحاجة أحوج، وأن فاقد الشيء لا يعطيه، كما يقضي العقل السلم بعدم اجتماع النقيضين، كما يقضي للشيء بأحد أمرين الوجود أو العدم. هذه بعض القواعد التي هي مسلمات عقلية، ولا بد منها ليبني عليها العقل أحكامه ويقيس عليها

الآراء والأفكار ويستند إليه حين إصدار الأحكام ولكنه حين يتجاهل هذه القواعد وأمثالها أو يحكم بخلافها، نقول إنه حكم عقلي ولكنه ليس مبنياً على العقل، أي ليس مبنياً على هذه القواعد أو مستنداً إلى هذه المقاييس. تلك المسلمات التي لا يختلف فيها اثنان من العقلاء.

إذا فالمقياس الأول في صحة تلك الفكرة –العقيدة– أن تكون مبنية على العقل حتى يقتنع بها كل صاحب عقل، لا أن تترك الإجابة ويتساوى عندها الوجود والعدم، أو تقنع بالحل الأوسط، أو أن تجعل المادة مصدر التفكير، أو أن تترك ما يتنافى معها للصدفة أو الطفرة. فالشرط الأول فيها أن تكون عقلية ومبنية على العقل.

أما المقياس الثاني فإنه مقياس من نوع آخر.

فالبحث متعلق بالإنسان، ومعنى وجوده في الحياة، ليعرف كيف يسير في الحياة، ويسير أعماله وتصرفاته بحسب فهمه لمعنى الحياة. لذلك كان لا بد أن يكون واقع هذا الإنسان وفهم حقيقته هي مناط البحث. لأنها الواقع الذي نريد تطبيق الفكر عليه حتى يصح أن يصبح الفكر صحيحاً بانطباقه على هذا الواقع. لأن الفكر الصحيح هو من انطبق على واقعه. فما حقيقة هذا الإنسان؟ أي ما الفطرة التي فطر عليها؟.

هذان المقياسان لا بد من محاكمة الفكر الكلية –العقيدة– بهما. المقياس الأول أن تكون عقلية مبنية على العقل، والمقياس الثاني، مطابقتها لواقع هذا الإنسان. أي موافقتها للفطرة التي فطر الإنسان عليها.

المقياس الأول:– وأعني به القناعة العقلية – والبناء على العقل فلا يظن ظان أن كل بحث عقلي هو بحث مبني على العقل، أو أن كل فكر حكم به العقل على واقع معين أن حكمه صحيح، ومبني على العقل بل البحث العقلي وإصدار الحكم على الأشياء والوقائع والأحداث يحتاج إلى عناصر متعددة وقواعد مختلفة ومقاييس متنوعة لا بد له من استعمالها حين مباشرته العملية الفكرية لإصداره حكماً على شيء، أو واقعة أو حدث، وتتوقف صحة حكمه على صحة هذه العناصر والقواعد والمقاييس، لأن العملية الفكرية لا بد فيها من عقل سليم يتولى عملية ربط ما عنده من معلومات بما نقله إليه الحس عن واقع معين أو حدث. فالعناصر الأساسية للعملية الفكرية أربع: عقل سليم، وحس صالح؟ وواقع محسوس أو مشخص في الذهن ومعلومات مختزنة أو مكتسبة تفسر هذا الواقع أو الحدث. فيقوم العقل بعملية الربط بين هذه العناصر ويصدر حكمه على هذا الشيء أو الحدث.؟وهذه العملية الفكرية العقلية تتوقف صحة نتائجها على الدقة في فهم الواقع والتفقه فيه والحذر من انخداع الحس، ثم الدقة في المعلومات المفسرة لهذا الواقع، والتأكد من صحتها، ثم الدقة في الربط بين المعلومات والواقع، إلا أن ذلك لا يعني الصحة في الحكم، إلا إذا كانت القواعد الأساسية والوحدات القياسية التي تحاكم على أساسها الأفكار والوقائع صحيحة يقينية.

فإذا كانت المعلومات المفسرة للواقع صحيحة، والوقائع والمقاييس التي جرى قياس الواقع والمعلومات عليها صحيحة أيضاً وكانت عملية الربط بين هذه العناصر صحيحة كان الحكم صحيحاً ويعتبر حكماً عقلياً مبنياً على العقل، أما إذا كانت المعلومات خاطئة أو كانت القواعد والمقاييس ليست من المسلمات العقلية، أو لم يحسن الربط بين هذه العناصر فإن النتيجة تكون خاطئة، أما إذا كانت المعلومات صحيحة والواقع صحيحاً وعملية الربط صحيحة إلا أن القواعد والوحدات القياسية المستعملة والتي جرى محاكمة الواقع عليها أثناء الربط، ومحاكمة المعلومات عليها أثناء الربط بين المعلومات والواقع إذا كان غير صحيحة. كانت العملية الفكرية عملية فكرية عقلية، ولكنها ليست مبنية على العقل لأن القواعد والمقاييس المستعملة لم تكن من المسلمات العقلية، ولا مما قطع العقل السليم بصحتها، ولذلك نقول أن النتيجة عقلية، ولكنها ليست مبنية على العقل.

ولذلك كان الإحساس بالواقع لا يكفي، بل لا بد من معرفة هذا الواقع معرفة مبنية على إحساس صادق ولذلك قبل الحكم، فلا بد من قياس الواقع على قواعد الحس الصادق كي لا نخدع بمظهر من مظاهر الشيء، أو نتصور السراب ماء، كما لا بد من التفقه بهذا الواقع، أي معرفة كافة جوانبه وظروفه وأحواله وما يتعلق به، أي ما هي القوانين التي تتحكم به وما هي الأسباب والمسببات له، كل ذلك لا بد منه قبل القيام بالعملية الفكرية أي ربط الواقع بالمعلومات، أو المعلومات بالواقع، كما لا بد من محاكمة هذا الواقع والمعلومات عنه وظروفه وأحواله، وذلك بقياسها إلى قواعد معينة، ومسلمات عقلية بحيث يجلى عنها كل غموض ويزول عنها كل إبهام.

بعد هذا الإحساس الصادق، والتأكد من صحة هذا الإحساس ينتقل هذا الإحساس إلى الدماغ ليرى رأيه فيه، فيقرر حقيقته، إلا أن الدماغ لا يمكنه ذلك إلا أن الدماغ لا يمكنه ذلك إلا إذا حصل على معلومات تفسر له هذا الواقع، سواء أكانت هذه المعلومات مختزنة، أم مكتسبة، وكما حاكم إحساسه على قاعدة أو قواعد معينة لا بد من محاكمة هذه المعلومات المفسرة لهذا الواقع كذلك على نفس القاعدة أو القواعد التي جرى محاكمة الإحساس عليها أي قياس هذه المعلومات على قواعد ثابتة ومسلمات عقلية تؤكد صحة المعلومات، وعدم مخالفتها للمسلمات العقلية، وما يقضي به العقل السليم، ومن ثم يقوم الدماغ بعملية الربط بين الواقع والمعلومات، وتكون النتيجة إذا صح الربط نتيجة عقلية مبنية على العقل، إذاً فالعبرة في الأحكام العقلية حتى تكون مبنية على العقل يعود لمجموعة القواعد والمسلمات العقلية التي يجري قياس الواقع عليها، أو قياس المعلومات بها أثناء عملية الربط وليس فقط لما يحكم به العقل، وكما أن المسائل الرياضية لا تحل إلا بما وضع لها من قوانين وجداول واستعمال أي قانون خطأ يؤدي إلى أن كل حل يستعمل فيه هذا القانون أو الجدول خطأ وسيؤدي حتماً إلى نتيجة خاطئة، ولو سار في حل المسألة سيراً صحيحاً. أما ما هي هذه القواعد والمسلمات العقلية؟ إنها أفكار عامة وقواعد فكرية وضعها العقل السليم في فهم الأفكار الجزئية، وإصدار الأحكام العقلية، أي إيجاد الأفكار. مثلها مثل القوانين الطبيعية الفيزيائية والكيميائية والرياضية واللوغاريتم والجذر التربيعي وغير ذلك فقد وضع في كل مجالات المعرفة مسلمات عقلية يستعان بها في الفهم من مثل عدم اجتماع النقيضين، والاثنين أكثر من الواحد والخط المستقيم أقصر

الخطوط بين نقطتين، ووراء كل أثر مؤثر ووراء كل نظام منظم، وآلاف من مثل هذه القواعد وفي كل المجالات، فاستعمال هذه القواعد والمسلمات العقلية أثناء العملية الفكرية يجعل النتيجة عقلية، ومبنية على العقل، أما محاولة التوفيق بين الوجود والعدم، أو التوقف عن البحث في منتصف الطريق، أو الاعتماد على الحدوث على الصدفة، أو الطفرة أو أن الجماد مصدر التفكير، وغير ذلك فإنه بالإضافة إلى بطلانها، فإنها لا تصلح أن تكون قواعد أساسية يقاس عليها، ولا يصح أن يقال لما بني عليها من أفكار أنها من أفكار مبنية على العقل، فالابتناء على العقل يقضي بأن يكون الأساس الذي بني عليه أساساً عقلياً، أي أن تكون القاعدة أو القواعد التي بني عليها أثناء الربط قواعد ومقاييس من المسلمات العقلية، بل البديهيات التي لا يختلف فيها اثنان من العقلاء.

ولذلك حين نريد أن نضع قاعدة أساسية لتفكيرنا، وذلك بإعطاء فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة، من حيث إنها هي الواقع الذي يمكن أن يقع عليه الحس، وهي الشاملة لكل شيء.

فلا بد من تقرير حقيقتها أولاً لنعرف أنها أزلية أم أنها مخلوقة لخالق، فهذا الواقع المحسوس أي الكون والإنسان والحياة، لا بد من التعمق فيه لمعرفته ومعرفة ظروفه وأحواله وما يتعلق به، ومن هنا كان لابد من الرجوع إلى ما لدينا من معلومات عنها جميعها، وما هي القوانين أو النواميس الطبيعية المسيرة لها. ومن ثم محاكمة هذا الواقع ومحاكمة المعلومات المتوفرة لدينا، بقياسها جميعها إلى مجموعة القواعد والمقاييس العقلية المسلمة بها، فحين نجد أن كل ما فيها محدود وأن كل ما فيها محتاج، وأنها جميعها تخضع إلى نظام ينظمها، وحين نعلم أن كل جزء من جزئياتها تخضع إلى قوانين ويحتوي على خواص لا يستطيع التخلف عنها، حين نجد كل هذا في هذا الواقع، وهذه المعلومات المفسرة له. ونردها إلى المقاييس والقواعد العقلية، بل البدهيات العقلية والتي تقرر حقيقة واحدة، وهي أن وراء كل نظام منظم، إن كل منتظم بنظام لا يملك الخروج عنه، وحين نشاهد ضمن هذا الواقع أن حرارة الشمس تختلف عن حرارة الأجواء المحيطة بها، وحين نعلم أن هناك كثيراً من الشموس وكذلك فهي تختلف عن الأجواء المحيطة بها، وأنها سراج منير يشع من حرارته، ولكنه لا يستطيع أن يعادل الحرارة أو يتعادل مع ما حوله من أجواء، حين نربط هذا الواقع بما عندنا من قواعد ومقاييس عقلية تقضي بأن كل جسم حار يفقد من حرارته تدريجياً حتى يتساوى مع محيطه، فإننا نقضي يقيناً بأن لها نقطة بداية أي أنها ليست أزلية، فيكون هذا الحكم حكماً عقلياً ومبنياً على العقل أي مبنياً على المسلمات العقلية أو البديهيات، وحين نصل إلى أن لها نقطة ابتداء، وأنها ليست أزلية فإن العقل يقصي بأن هناك من أوجدها، وأن هناك من وهبها هذه الحرارة، وأن هناك من أخضعها للنظم التي تنتظمها. هذا هو والحكم العقلي المبني على العقل وهذا هو الشرط الأول في الحكم على الفكرة الكلية بأنها صحيحة، وأن هذا الحكم منطبق على واقعه تمام الانطباق فهو فكر صحيح. مثال: إن كل شيء فيه حرارة يستمر في الإشعاع من حرارته إذا كان الجو من حوله دون مستوى حرارته، فيستمر في الإشعاع حتى يتساوى من الجو المحيط به وتصبح حرارته مثل حرارة الجو المحيط به مثل كوب الشاي، فلو صببنا الشاي في كوب وكانت درجة حرارة الشاي ٩٠° فإنه يبدأ بالإشعاع من حرارته، ويفقدها تدريجياً حتى يصل إلى درجة حرارة المكان الموجود فيه، ونستطيع لو دخلنا غرفة

ما ووجدنا فيها كأس من الشاي مازال ساخناً أن نحسب المدة التي سكب فيها، وأما بعد أن يتساوى مع محيطه فإننا لا نستطيع تحديد المدة. إلا أننا نقول أنه قد مضت مدة طويلة على سكبه في هذا الكوب. هذا من حيث فقدان الحرارة، وهناك مقياس آخر للإشعاع، فالمواد المشعة تفقد من كتلتها بواسطة الإشعاع أجزاء وقد تتحول إلى عنصر آخر بسبب فقدان تلك الأشعة، فاليورانيوم يتحول إلى رصاص بعد إشعاعه. وبناءاً على ذلك فقد حسبوا كتلة الرصاص المتخلف عن عنصر اليورانيوم بواسطة الإشعاع وأطلقوا على تلك الكتلة اسم كتلة نصف عمر حيث أن عنصر اليورانيوم عنصر مشع ويخلف بعد فقدانه ما يشعه كتلة من الرصاص. ولهذا سموا هذه الكتلة كتلة نصف العمر.

وبناء على قانون الحرارة كذلك فإنهم يحسبون للشمس متى تنتهي وذلك بحساب كمية ما تشعه من حرارة، ويقولون إنها بعد كذا من السنين ستفقد حرارتها، وذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا إن هناك نجوماً كثيرة فقدت حرارتها وطفئت، ،أصبحت تشكل بقعاً سوداء وقد حسبوا أيضاً ما ينتج عن ذلك الإشعاع من زيادة كثافة الجسم المشع، وبالتالي فإنهم يقولون أن الشمس حين تفقد الكثير من حرارتها، فإن هذا سيزيد من كثافتها وبالتالي من قوة جاذبيتها!!! وستجذب إليها مجموعتها، وبهذا نهاية العالم. هذا ما ذهبوا إليه ولا يهمنا ما ذهبوا إليه في بحوثهم إلا أن المسلم به عقلاً، أن كل جسم حار يستمر بفقدان حرارته حتى يتساوى مع محيطه، وهذا يعني أن هذه الأجرام السماوية المشعة للحرارة لم تمض عليها المدة الكافية لتتساوى مع محيطها، وهذا يعني أن لها نقطة بداية، بدأت منها، أي أنها ليست أزلية وهذا ما يقطع به العقل السليم وهذا ما نعني به أن تكون عقلية، ومبنية على العقل.

وأما المقياس الثاني، وهو مطابقة الفكرة لواقع الإنسان: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[1] فإنه مثلما عرفنا واقع الأشياء معرفة حقيقية وتفقهنا فيها حتى استطعنا أن نحكم عليها ويكون حكمنا مطابقاً للواقع. أي بعد أن قسنا واقع الأشياء والمعلومات المفسرة لها على القواعد العقلية المسلم بها، ولذلك كانت النتيجة مطابقة للواقع تماماً. كذلك الأمر لا بد من معرفة واقع الإنسان معرفة حقيقية وقياس هذه المعرفة على القواعد العقلية المسلم بها.

ولهذا كان لا بد من معرفة واقع الإنسان معرفة حقيقية، والحصول على معلومات عن هذا الكون والإنسان تكفي لتفسيره ومعرفة حقيقته، ثم يجري قياس هذه المعلومات، وقياس واقع الإنسان على القواعد العقلية المسلم بها أثناء الحكم على هذا ١لإنسان. ليكون الحكم مطابقاً للواقع. نعم لا بد من معرفة واقع الإنسان لأنه هو مناط التكليف، وهو موضوع البحث، وهو الباحث وهو الذي يبحث عن معنى وجوده في الحياة ليحدد سيره فيها وهو الباحث عن سعادته لذلك كان لا بد أن يكون ما حكمنا به على الأشياء بالإضافة إلى كونها عقلية ومبنية على العقل لا بد أن تكون مطابقة لواقع هذا الإنسان أي موافقة للفطرة التي فطر الناس عليها ولا يمكننا معرفة موافقة هذا الحل للفطرة أو مخالفته لها إلا إذا عرفنا

[1] سورة الروم: ٣٠.

مكونات هذا الإنسان ومقوماته، وبواعث الطمأنينة في نفسه حتى يقضي هذه الفترة الزمنية على خط مستقيم وطمأنينة دائمة وليتخلص من الشقاء الذي يعانيه وحالات القلق والإضراب التي تنتابه ولعلنا نرتقي به إلى المستوى الإنساني الذي كرمه الله به لهذا كان لابد من التفقه في واقع هذا الإنسان.

قلنا منذ البداية أن الإنسان يسير سلوكه وينظم تصرفاته تبعاً لمفاهيمه عن الحياة وهذه المفاهيم هي مجموعة الأفكار التي صدق بها الإنسان وأدرك واقعها وأن هذه الأفكار هي مجموعة أحكام أصدرها العقل عن وقائع وأحداث وأشياء محدداً موقفه منها وبناءاً على هذا يتبين أن المسير لسلوك الإنسان هو هذه القوى العاقلة التي حباه الله بها ولهذا كان لابد أن تكون هذه الأحكام الصادرة عن القوة العاقلة في الإنسان مطابقة ومتفقة مع مكونات هذا الإنسان، مقرة بها عاملة على استقرارها وطمأنينتها وبعبارة أخرى أن تكون الفكرة الكلية عن الكون والإنسان والحياة متفقة مع فطرة الإنسان وما جبل عليه أي متفقة مع ما يتكون منه جسم هذا الإنسان فما هي هذه المكونات.

أولاً: المكونات العضوية – التركيب العضوي:

من المعروف بداهة أن التركيب العضوي للإنسان يتطلب عناصر أساسية لابد من توفيرها حتى يحفظ جسم الإنسان من الهلاك ويحافظ على نموه وقدرته على الحركة وتتمثل هذه العناصر بكافة ما يحتاجه الإنسان من طعام وشراب وما يحويه الطعام والشراب من عناصر يحتاجها الجسم.

بالإضافة إلى ما يأخذه مباشرة من الهواء من الأكسجين وغيره من العناصر وكما احتاج هذه القوة والبناء فإنه يحتاج إلى طرح النفايات والفضلات فأي فكرة أساسية لا تراعي هذا التركيب العضوي ولا تتوافق مع هذه الحاجات ولا تعمل على إشباع هذه الجوعات فإنها فكرة هدامة تعمل على فناء الجنس البشري وتحطيم حياته.

ثانياً: التركيب الغريزي (النفسي):

إن من المعروف بداهة كذلك، أن هذا الإنسان حريص على بقاء حياته كل الحرص وأن هذا بالنسبة إليه قضية مصيرية يقاتل عليها حتى الموت كذلك فإن حرصه على بقاء النوع الإنساني لا يقل عن حرصه على بقاء جسمه فحرصه على والديه وحرصه على بنيه واستعداده لأن يفدي أياً منهم بنفسه وماله، يظهر لنا بوضوح أن قضية حرصه على بقاء النوع الإنساني قضية مصيرية يتخذ حيالها الحياة أو الموت وأحب أن ألفت النظر إلى جزئية هامة من المحافظة على بقاء النوع، وأقول جزئية منها من حيث نقائها فقط. وأعني بذلك مسألة العرض، فقضية العرض موضوع واضح للعيان ومعروف أنه من القضايا المصيرية التي يتخذ الإنسان حيالها الحياة أو الموت فبقاء النوع والنوعية الإنسانية أمر حتمي، وقضية مصيرية.

كما أنه حريص جداً على ملجأ يلوذ إليه عند الشدة ويهرع إليه عند الحاجة حين يقل الناصر ويفتقد المعين... أي حين لا يستطيع أحد أن يسد حاجته أو يؤمن روعته وقد أطلق على هذه الأحاسيس النفسية، والمشاعر الذاتية الدافعة اسم الغرائز. وهي طاقة كامنة وبواعث على الحركة والاندفاع دائماً.

وإنه وإن ذهب بعض الناس في تقسم الغرائز وتعدادها حتى زادت على المائة إلا أننا نرد كل تلك المظاهر التي حسبوها غرائزه إلى الأصل الذي انطلقت منه فيه لا تعدو ثلاثة أصول تشمل كل نواح الحياة عند الإنسان: حبه للبقاء وحرصه عليه، وحبه للنوع أي لنوع الإنسان واستمرارية تناسله وحرصه عليه، وحبه للأمن والطمأنينة وحرصه عليه. ولكل أصل من هذه الأصول مظاهر متعددة تظهر كل ما وجد الباعث على ظهورها فهو يخاف حين يوجد الباعث على الخوف إما من واقع مشخص أمامه يبعث على الخوف وإما من تداعي أفكار الخوف من واقع مشخص في الذهن على أنه موجود في الخارج حرص منه على بقائه وسلامة نفسه واستمرار حياته، وهو يميل إلى الفتاة حين وجود الفتاة أو التفكير بفتاة مشخصة بالذهن، وذلك حرصاً منه نفسياً على استمرار النوع الإنساني، وهو يلهج بالدعاء والتوسل إلى الله حين يكون في مأزق لا يجد من يخلصه منه أو حين يفكر في الحصول على أمر بعيد المنال.

ولكل واحدة من هذه الغرائز الثلاث مظاهر متعددة تنبعث منها مشاعر ضاغطة على نفس الإنسان كلما حدثت في النفس جوعة غريزية لأحد هذه الغرائز أو لمظهر من مظاهرها. حتى يندفع الإنسان في إشباع هذه الجوعة، أو البحث عن وسيلة لإشباعها ويبقى عامل الضغط على النفس البشرية قائم مسبب القلق والاضطراب له حتى تزول أسباب تلك الجوعة أو يشبع تلك الجوعة أو يتهيأ لها وسيلة لإشباعها. ولا يقال: إن هذه أمور ليست أصيلة في النفس وإنما هي صفات مكتسبة، وأشياء أملتها على الإنسان ظروف عيشة وطبيعة حياته، ولا يقال ذلك، لأن الملاحظ أن الطفل منذ لحظة ولادته توجد معه هذه الأمور مشاهدة بالحس، قبل أن يستطيع التقليد أو الاكتساب، فحنينه إلى أمه وصراخه من الألم وحبه لامتلاك كل شيء ممن حوله، كل هذا يؤكد فطرة هذه الأمور معه وليست صفات مكتسبة من مجتمعه، ولا ينكر وجودها إلا مكابر والعياذ بالله. وهل هناك مكابر أكبر من الذين يقولون أن غريزة التملك تنشأ من المجتمع الرأسمالي والمفاهيم التي تعطى عنها وليس في الإنسان غريزة تملك، وإنما هي صفات مكتسبة لقنها الطفل من صغره. فمن علم الطفل الرضاعة وحرصه على ثديّ أمه، ومن علمه الحرص على لعبته، ومحاولة امتلاك لعبة غيره إن وجدت.

كانت هذه لمحة موجزة عن تركيب هذا الإنسان ذلك التركيب الفطري الذي لا مجال لتجاهله أو إهماله أو تغييره ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ وإلا أدى ذلك إلى فناء الإنسان وانقراضه، بتجاهل الحاجات العضوية، أو تجاهل غريزة النوع أو أدى إلى ترك الإنسان حبيس الهواجس والقلق والاضطراب لعدم تمكنه من إشباع جوعاته الغريزية والأحاسيس الفطرية التي تضغط على أعصابه حتى تسبب له الشقاء والتعاسة.

كانت هذه اللمحة السريعة لمعرفة مدى أثر الفكرة الكلية وما ينبثق عنها من نظم على هذا الإنسان الذي هو موضع البحث، والمشكلة التي يراد لها حل.

فأية فكرة كلية –عقيدة– وما ينبثق عنها من معالجات لم تأخذ بعين الاعتبار هذه المكونات للنفس البشرية، تعتبر فكرة خاطئة، ولا تصلح للنهضة الصحيحة، لهذا الإنسان أو للمجتمع البشري.ومن هنا كان المقياس الأول وهو أن تكون تلك الفكرة عقلية ومبنية على العقل، مقياساً حقاً، وكان المقياس الثاني وهو موافقة تلك الفكرة الكلية لفطرة الإنسان مقياساً حقاً كذلك وأية فكرة كلية –عقيدة– تخالف هذين المقياسين أو أحدهما فهي فكرة خاطئة ولا تصلح للنهضة الصحيحة.

فحين تقرر فكرة ما مثلاً كبت غريزة النوع أو نشر فكرة الرهبنة والعزوف عن الزواج وتحريمه، فإنها فكرة خاطئة لأنها لم تراعي غريزة النوع الموجود فطرياً في الإنسان فلو التزم كل إنسان بهذه الفكرة إذا لانتهى الجنس البشري بعد سنوات معدودة من اعتناق مثل هذه الفكرة.

ذهب جماعة من الصحابة إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته ولما أجيبوا فكأنهم تقالّوها فقالوا: إن رسول الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ثم قال أحدهم: أما أنا فسأقوم الليل ولا أنام أبداً، وقال الثاني: أما أنا فسأصوم ولا أفطر أبداً وقال الثالث: أما أنا فسأعتزل النساء، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ خطب الناس في المسجد وقال «**ما بال أناس يقولون كذا وكذا. أما أنا فأقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فهذه سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

هذا من حيث مخالفة الفكرة لفطرة الله التي فطر الناس عليها، كما أنه حين تقرر فكرة كلية ما كبت غريزية البقاء أو كبت أحد مظاهرها مثل مظهر حب التملك أي ما يسمونه غريزة التملك باعتبارها عادة مكتسبة فانه بالرغم من عجزهم عن ذلك، فظاهرة التملك موجودة عند الطفل الذي لم يكتسب بعد ممن حوله أي شيء، إن محاولة كبت هذه الظاهرة هي محاولة فاشلة، وإنها تسبب حتماً شقاء الإنسان وتعاسته لمخالفتها لفطرته ولذلك نقول: إنها فكرة كلية خاطئة ولا تصلح لنهضة الإنسان نهضة صحيحة، أو جلب الهناءة و السعادة له. ولا يمكن تحقيقها إلا بالقوة والإجبار.

وكذلك فإن أي فكرة كلية تحاول منع الإنسان من الإحساس بالحاجة إلى قوة يلجأ إليها كلما وقع في شدة أو مسه ضرر فإنها فاشلة لأنها لن تستطيع إزالة هذا الشعور فكل ما تستطيع فعله أنها تصرف هذا الشعور بالتقديس والاحترام إلى جهة أخرى. أما أن تزيل ذلك الشعور فهذا ضرب من الخيال. فتصرفها إلى تقديس واحترام الدولة أو شخص أو زعيم أو غير ذلك فيهي تماما مثل محاولة إقناع بالعزوف عن الزواج ليشبع نفسه بالزنى أو اللواط فهي محاولة لإشباع جوعة النوع إشباع خاطئ أو إشباع شاذ لأحد المظاهر.

أما الفكرة الكلية الصحيحة –العقيدة– فهي الفكرة التي لم تهمل ما فطر عليه الإنسان من حاجات عضوية أو جوعات غريزية بل عمدت إلى تنظيم هذه الجوعات جميعا و لم تكبتها، ونسقت فيما بينها تنسيقاً دقيقاً و لم تطلقها، بحيث إنها لم تسمح بإشباع واحدة على حساب الأخرى. مثل هذه الفكرة، التي حكم المقياس الثاني بصحتها أي بموافقتها لفطرة الإنسان، نقول أن مثل هذه الفكرة الكلية صحيحة، ما دام قد توفر فيها الشرطان:

أ– أنها عقلية مبنية على العقل.

ب– أنها موافقة لفطرة الإنسان.

ومن هنا نجزم أن الفكرة الكلية –العقيدة– أي القاعدة الفكرية التي يبني الإنسان عليها أفكاره، وتنبثق عنها أنظمة حياته هي التي يجب أن يتوفر فيها شرطان، أن تكون عقلية ومبنية على العقل حتى تحصل القناعة العقلية وأن تكون موافقة لفطرة الإنسان وبذلك تحصل الطمأنينة للقلب. وهذا ما يؤدي إلى سعادة الإنسان، وهي القاعدة التي ينطلق منها لتحقيق النهضة لبني الإنسان.

فقناعة العقل هي التي ينطلق منها الإنسان في تصريف شؤونه وموافقة الفطرة هي الباعث على طمأنينة قلبه.

العقيدة أو القاعدة الفكرية

عرفت العقيدة بأنها: فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة، وعما قبل الحياة وعما بعد الحياة وعن علاقتها بما قبلها وعن علاقتها بما بعدها.

ولكن هل تكفي هذه الفكرة الكلية لأن تكون قاعدة فكرة، تبنى عليها كافة الأفكار التي يمكن أن تجابه الإنسان في الحياة، وهل يمكن أن تكون هذه الفكرة شاملة لكل جوانب الحياة وليست مقتصرة على جانب دون آخر؟ وهل حملت هذه الفكرة الأسس التي تجعلها موجودة في واقع الحياة؟ وبعبارة أخرى هل حوت هذه العقيدة كيفية لإيجادها في الحياة، وكيفية لتنفيذها والمحافظة عليها، أي هل اشتملت على طريقه تجعلها حية في الوجود، وتحافظ عليها، وتبين كيفية معالجتها لمشاكل الإنسان، وكيفية لحملها لبني البشر؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات بالإيجاب هي التي تجعل هذه العقيدة بحق قاعدة فكرية، تنبثق منها كافة المعالجات لمشاكل الحياة وتبنى عليها كافة الأفكار التي يمكن أن يوجدها الإنسان. ولها كيفية معينة في تنفيذ معالجاتها، وفي الحفاظ عليها وفي حملها لبني البشر أي طريقة لإيجادها في واقع لحياة. فإذا كانت كذلك كانت عقيدة عقلية انبثق عنها نظام حياة الإنسان على هذه الأرض وفي الوقت نفسه وضعت الأسس لتنفيذها لهذا النظام، وإيصاله لكل إنسان، من حيث إنها لم تقتصر على جانب دون آخر ولم تنظر لفئة من الناس دون أخرى فقد كانت نظرتها للإنسان من حيث هو إنسان، ولم تقتصر على قطر من الأقطار فقد كانت نظرتها للوجود بكامله ولم تقتصر على الوعظ والإرشاد والوصية بل اتخذت كيفية معينة ليتمكن الإنسان من إيجادها في واقع الحياة، وينفذ ما جاءت به من نظم وما انبثق عنها من معالجات.

وبهذا يستطيع الإنسان نفسه أن يعيش بها ولها ويقود غيره من بن الإنسان بها. أ نقاد بها ويقودها ويقود غيره بها، ومن هنا كانت كذلك قيادة فكرية.

هذا ما يشترط في العقيدة حتى تصبح قاعدة فكرية تبنى عليها جميع الأفكار، وتؤدي إلى نهضة حقيقية، كما أنه عليها تتوقف صحة النهضة، فإن كانت هذه العقيدة –الفكرة الكلية– صحيحة، كانت النهضة صحيحة وان كانت خاطئة كانت النهضة الناشئة عنها نهضة خاطئة. ولهذا كان لا بد أن تكون هذه الفكرة الكلية –العقيدة– فكرة يقينية، توافق الفطرة وتقنع العقل. ليمتلئ قلب الإنسان طمأنينة ويشعر بالسعادة.

نعم إنه من الممكن أن يكون هناك عقائد قاصرة، مع أنها فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة ولكنها اقتصرت على جانب واحد من حياة الإنسان من حيث علاقته بما قبل الحياة أو ما بعد الحياة، أو أنها اقتصرت على جانب وضع

المعالجات،و لم تبين كيفية تنفيذ هذه المعالجات، فبقيت إما فردية، أو فلسفية، أو إنها اقتصرت على فئة من الناس أو قوم معينين دون غيرهم، مثل هذه العقائد ولو أنها فكرة كلية إلا أنها لا تصلح لأن تنهض الإنسان من حيث هو إنسان، أو تجلب السعادة لبني البشر.

فالعقيدة اليهودية مثلاً، فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة، وعن علاقتها بما قبل الحياة، وعن علاقتها بما بعد الحياة، إلا أنها اقتصرت على بعض المعالجات دون بعض، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنها اقتصرت على قوم معينين، فهي عقيدة خاصة ببني إسرائيل أي هي عقيدة قومية، فهي إذن لا تصلح لبني البشر ما وجدوا، وفي أي عصر، أو إلى أي عرق انتموا فهي عقيدة قومية محدودة بفترة من الزمن، فهي قاصرة ولا تصلح.

وأما العقيدة النصرانية، فإنها وإن كانت فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة، إلا أنها اقتصرت على مجموعة من الوصايا في تنظيم بعض الجوانب من حياة الأفراد، كما قصرت أيضاً عن وضع كيفية للمحافظة عليها، أو لتنفيذ تلك الوصايا التي جاءت بها. إذ اقتصرت على علاقة الإنسان بخالقه في العبادات وفي بعض المطعومات، وفي بعض قضايا الزواج، كما أنها أوصت الأفراد بعدم ممارسة بعض الأعمال السيئة –وهي ما يسمى بالوصايا العشر– (لا تسرق، لا تزن، لا تقتل، الخ) إلى غير ذلك من الأمور البسيطة. وتركت الفرد يباشرها بنفسه، و لم تجعل له كيفية معينة لتنفيذها، أو كيفية للمحافظة على العقيدة نفسها، خصوصاً وهي تقول كما يزعم أصحابها – (أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله).

كما أن هناك العديد من العقائد والأفكار الفلسفية التي شملت بنظرتها الوجود بكامله، ونظرت للإنسان من حيث هو إنسان ووضعت معالجات لمشاكل الإنسان، ونظمت علاقاته، ولكنها قصرت عن إيجاد طريقة لتنفيذ هذه المعالجات والأفكار، مثل جمهورية أفلاطون، والمدينة الفاضلة –الفارابي– أو غير ذلك، ولذلك فإن مثل هذه العقائد والأفكار العامة لا تصلح أن تكون أساساً للنهضة، أو طريقاً موصلاً إلى نهضة، لأن النهضة وكيفية الوصول إليها أو السير في طريق النهوض يقتضي ما يلي:–

أولاً:– وجود فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة وعما قبل الحياة وعما بعد الحياة وعن علاقتها بما قبل الحياة وعن علاقتها بما بعد الحياة الدنيا. حتى يستطيع الإنسان أن يحدد معنى وجوده في هذه الحياة، وبالتالي يحدد مفاهيمه عن الحياة الدنيا، فيتحدد سلوكه في حياته الدنيا بناء على هذه الفكرة الكلية، وما يبنى عليها من أفكار وما ينبثق منها من معاني ومفاهيم ومعالجات.

ثانياً:– أن تشتمل هذه الفكرة الكلية على معالجة مشكلة الفرد الأساسية. وهي تحديد معنى وجوده في الحياة، كما تشتمل على معالجات مشاكله جميعها، بحيث تنظم له علاقاته جميعها، أي تنظم أفعاله وتصرفاته في هذه الحياة، فلا تتركه في دوامة من التناقضات، ولا نهباً للمخاوف والوساوس والقلق والاضطراب. خوفاً على نفسه، أو خوفاً على جنسه أو

خوفاً على كرامته أو بعيداً عن مأمنه أي إنها وضعت له أسس المعالجات لكافة مشاكله في المرحلة الزمنية التي سيقضيها الإنسان على هذه الأرض، أي مرحلة الحياة الدنيا.

ثالثاً:- أن تكون هذه العقيدة فيها قابلية الانتشار لبني الإنسان بحيث أنها لم تقتصر على قوم دون آخرين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] وذلك لأنها فكرة كلية شاملة، فهي في الأصل نظرت إلى الإنسان من حيث هو إنسان ثم هي فكرة، أي إنتاج عقلي، فهي حكم العقل على مجموعة ما يقع عليه الحس، فإذن لا بد أن تكون عقلية – أي تخاطب عقول البشر، وتجعل العقل مناط التكليف.

وبما أنها كذلك فلا بد أن تشتمل على وجوب نشرها والعمل بها ولها، حتى يصح أن تسمى قاعدة فكرية وقيادة فكرية ينقاد الإنسان بها ويقودها لينقاد غيره بها كذلك، أو يقودهم بها.

رابعاً:- أن تحمل في ذاتها كيفية المحافظة عليها وبقائها صافية نقية، فلا يصح أن يعتريها غبش يخفي صفائها، ولا أن يدخل فيها ما ليس منها فيضيع نقاؤها. فلا بد أن تكون عقلية يقينية بعيدة عن الظن، بعيدة عن كل شيء لم يقم الدليل اليقيني على صحته: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[2]. ولم تكتف بالتوصية في ذلك بل فرضت عقوبات على من يحاول تبديلها، أو المس منها، أو أخذها بالظن.

خامساً:- أن تتضمن هذه العقيدة كيفية لتنفيذ ما جاءت به من معالجات، وطريقة تتمكن من إيجاد هذه المعالجات في واقع الحياة، فلا تكتفي بجعل معالجاتها وصايا أو توصيات وللفرد أن يأخذها إن شاء أو يرفضها، بل لا بد من طريقة لهذه المعالجات تحتم وجودها في حياة الفرد والناس والمجتمع شاءوا أم أبوا.

فهي حين توصي بالمحافظة على النفس الإنسانية جعلت طريقة تنفيذ ذلك قتل القاتل، وحين أمرت بالمحافظة على العقل جعلت طريقة تنفيذ ذلك جلد السكران، وحين قالت بالمحافظة على كرامة الإنسان جعلت كيفية تنفيذ ذلك جلد القاذف وحين أوجبت حفظ النسل أي حفظ النوع الإنساني جعلت عقوبة الدية على الجب والتعقيم والاخصاء، وحين قررت عدم اختلاط الأنساب جعلت عقوبة القتل الشنيع -الرجم- على الزاني المحصن للحفاظ على نوع الإنسان ونسبه، وحين أمرت بالمحافظة على أموال الناس وممتلكاتهم، جعلت طريقة تنفيذ ذلك قطع يد السارق. وحين أرادت بعث الطمأنينة في النفوس، وإشاعة الأمن والاستقرار في المجتمع، جعلت عقوبة من يعبثون بأمن الناس وحياتهم القتل، أو الصلب أو تقطيع الأطراف من خلاف وحين قررت المحافظة على العقيدة جعلت القتل عقوبة المرتد. وحين أوجبت تنفيذ هذه الأحكام جميعها وإيجاد فكرتها في واقع الحياة أو جبت على الناس إنابة فرد منهم ليقوم بالتنفيذ، أي أوجبت مبايعة خليفة

[1] سورة الحجرات: ١٣.

[2] سورة النجم: ٢٨.

لتنفيذ ذلك وجعلت عقوبة الخارج على الخليفة أي على الدولة القتل. وهكذا فإنها لم تترك معالجة إلا وجعلت كيفية معينة لتنفيذها تباشرها الدولة. وباختصار ؛ فإنها لم تكتفي بوضع معالجات للناس تبين فيها للإنسان كيف يصرف أفعاله ويشبع حاجاته وجوعاته، بل وضعت كيفيات معينة لتنفيذ كل معالجة من هذه المعالجات، أي أنها لم تكتف بكتابة الوصفة الطبية للمريض، وتركت له تناول العلاج بنفسه، بل تصرفت كالمستشفى المنظم الذي يشرف فيه الممرض على إعطاء الدواء للمريض طوعاً أو كرهاً. حتى في تصرفات الفرد الذاتية -علاقة الفرد بنفسه، أو علاقته بربه- بل لم تكتف بوضع المعالجة بل أوجبت تنفيذ هذه المعالجة. فعدم تناول المريض معالجة تعبدية كالصلاة مثلاً، فإنها أوجبت على القائمين على التنفيذ،إيقاع عقوبة زاجرة عليه حتى يتناول تلك المعالجة، وحين لا يلتزم بمعالجة خلقية أو غذائية فإنها كذلك فرضت من العقوبة ما يكفي لزجره وسلوك الطريق القويم والسيرة الحسنة.

سادساً:- وكما قلنا إنها فكرة كلية تناولت الإنسان من حيث هو إنسان، ووجدت من أجل سعادته وإنهاضه، فإنها تبنت وجوب حملها للناس ودعوتهم لاعتناقها.فخاطبت عقولهم لإدراك حقيقتها وأقامت الحجج والبراهين على صحتها، إلا أنها لم تترك ذلك وصية ينفذها فرد إن شاء بل جعلت لها كيفية معينة تبين كيف تحمل هذه الفكرة للناس، والطريق التي يلمس الناس بها تلك الحقيقة دون ما حاجب يستر عنهم رؤيتها أو يشوه صورتها مثلاً:- حين أمر الله تعالى المسلمين بحمل الدعوة للناس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[1] لم يكتفي بالوصية فقط من مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2] أو من مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3]. كانت الدعوة فكرية بتكتل حزبي سار به رسول الله ﷺ مبيناً كافة الخطوات والمراحل التي تقتضيها الدعوة للوصول بالفكرة للتطبيق والتنفيذ حتى أقام دولة الإسلام وباشر تنفيذ المعالجات ثم انتقل لمرحلة جديدة تقتضي خلاف ذلك.

لم يكتف بهذا و لم يقف عند هذا الحد. بل أمر رسوله والمؤمنين بكسر الحواجز المادية التي تقف في وجه الدعوة. لأن طريقة نشر الدعوة في تلك المرحلة تقضي بفرض نظام الإسلام على الناس، وتطبيق أحكامه عليهم، ليدركوا صدق فكرته ويدركوا عدالة تشريعه دون ما حاجز أو تشويه، أو إكراه. ولذلك تتابعت الآيات الكريمة التي أمرت المسلمين بالجهاد وقتال الكفار اللذين يقفون حائلاً بين المسلمين وتطبيق الإسلام على الناس، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا

---

[1] سورة سبأ: ٢٨.

[2] سورة النحل: ١٢٥.

[3] سورة فصلت: ٣٣.

وَإِنَّ اللهَّ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[2]، سواء من آمن بالله ورفض الإيمان بنبوة محمد ﷺ كاليهود والنصارى، أو من كفر بالله وكفر بنبوة محمد ﷺ، كمشركي العرب والمجوس وغيرهم وذلك من أجل تطبيق الإسلام عليهم ليروا صدق فكرته، ويبصروا عدالته من غير إجبار أو إكراه وبعيداً عن التضليل والحقد والحسد. قال تعالى: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهّ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[3]. ومن مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهّ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[4]. وكما كانت سيرته ﷺ طيلة حياته التي تعتبر تنفيذاً عملياً لهذا المبدأ. فقد ورد عنه ﷺ ما يلي: عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال اغزوا باسم الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدة، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، أدعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم الذي يجري على المسلمين، ولا يكون لهم في الفيء أو الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وإن أبوا فاستعن بالله عليهم**»[5].

كما ورد في سيرته ﷺ حين هاجر من مكة إلى المدينة ودعا وجهاء المدينة وممثلي الناس بمن فيهم زعماء اليهود وأملى الدستور الأول على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، مبيناً فيه العلاقات العامة بين المسلمين بعضهم مع بعض، وبين المسلمين وغيرهم، على مرأى ومسمع من وجهاء القوم، ولم يكتفي بهذا بل طلب منهم إقراره وتوقيعه، وجعل فيه احتكام الناس إليه بمن فيهم اليهود مع أنهم أهل كتاب. إلا أنه حين غدر يهود بنقضهم المعاهدة -وهذا شأنهم- حكم عليهم الرسول ﷺ بأحكام تناسب ما قاموا به من نقض للعهود، منهم من قتلهم كبني قريظة ومنهم من أجلاهم كبني النضير وامتدت دائرة سلطانه بالفتح، سواء من أرض مشركي العرب كمكة أو من أرض يهود كخيبر وحين فتح خيبر

---

[1] سورة الحج: ٣٩.

[2] سورة محمد: ٤.

[3] سورة التوبة: ٢٩.

[4] سورة التوبة: ١٢٣.

[5] رواه مسلم وابن ماجة والدارمي.

بالقوة أبقى أهلها تحت حكمه وسلطانه وجعلهم على نخيلهم وأرضهم بناءاً على عقد المساقاة، و لم يجبر أحداً منهم على الإسلام كما أرسل جيشه لمحاربة الروم مع أنهم نصارى أهل كتاب، في معركة مؤتة.

هذه سيرته ﷺ يتضح منها أمران: الأول: طريقة إيجاد الإسلام في واقع الحياة بإقامة دولة الإسلام ولها أحكامها الخاصة بها.

الثاني: طريقة تنفيذ الإسلام ومعالجاته وأحكامه ونشره للناس كافة.

كما يتضح من أحكام الأمر الأول، التكتل، والدعوة، والعمل السياسي، ومقارعة الحجة بالحجة، وتبيان مفاسد ما عليه الناس، ومهاجمة أئمة الكفر ورؤوس الفساد. أي الصراع الفكري والكفاح السياسي.

ويتضح في الأمر الثاني:- رعاية الشؤون وإقامة الحدود وحماية الثغور، وبسط الإسلام بالجهاد ليبصر الناس بأم أعينهم، صدق الدعوة وعدالة التشريع. أي إنابة المسلمين عنهم من يتولى هذه الأمور التي ليست من اختصاص الفرد بل هي من اختصاص السلطان أي الخليفة.

هذه هي الشروط الستة في كل فكرة كلية يراد إنهاض الناس بها. وباختصار هي مبدأ يقوم على عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام، وأنه فكرة تبين العقيدة والمعالجات وحمل الدعوة، وطريقة تبين كيفية المحافظة على هذا المبدأ وكيفية تنفيذ ما جاء به من معالجات وكيفية حمله للناس.

وهذا هو الأساس الصحيح الذي تقوم عليه النهضة وما سوى ذلك فهو ترقيعات بالية ومظاهر خادعة وتضليل كاذب.

بقية مسألة: هل أن العقائد أساساً للنظم ومصدراً للقوانين المسيرة لسلوك الإنسان؟ وهل أجابت عن الأسئلة الخمسة التي تتكون عليها العقيدة؟

تكوين فكرة عن الوجود -الكون والإنسان والحياة- هل هي أزلية أم مخلوقة لخالق؟ وما الذي قبلها؟ وما الذي بعدها؟ وما علاقتها بما قبلها؟ وما علاقتها بما بعدها؟ هذه الأسئلة التي تفرض نفسها على كل مفكر يريد أن يشق طريقه في الحياة، وبحسب الإجابة عليها يكون سلوكه في الحياة. أي عرف معنى وجوده فيها وكيف يسير وإلى أين يسير.

نعم إنها تساؤلات، وأجابت العقيدة على هذه التساؤلات إجابات أوضحت السبيل للإنسان لمعرفة معنى وجوده وكيف يسير، إنها بينت له علاقته بما قبل الحياة وبما بعد الحياة وهذا يعني بيان ما عليه أن يفعله في الحياة ولذلك أجابت العقيدة المادية على هذه التساؤلات وقالت: بأن لا إله والحياة مادة وجعلت المادة أزلية وهي بتطورها مصدر لكل شيء

فالفكر والعقل هما من إنتاج المادة،فالمادة هي مصدر التفكير وعلاقات الإنتاج تحددها وسائل الإنتاج ووسائل الإنتاج هي نتاج للتطور المادي، وبالتالي فإن علاقات الإنتاج تتطور تبعاً للتطور المادي أي تبعاً لتطور وسائل الإنتاج.

ومن هنا كانت المادة -أي عقيدتهم- بتطورها الدائم حسب زعمهم، هي مصدر تفكيرهم ومنبع نظمهم وقوانينهم فالحجر والفأس والتراكتور والسيارة والطائرة والصاروخ هي التي تفرض نظماً للعلاقات بين الناس. هذا بزعمهم وما تحتمه العقيدة التي آمنوا بها واعتنقوها.

وأما العقيدة الرأسمالية، أي الديمقراطية فقد أجابت على تلك التساؤلات بفصل الدين عن الحياة وقالت بحكم الشعب بالشعب وللشعب، أي: جعلت الإنسان هو مصدر كل شيء فهو الذي يضع نظمه وقوانينه ويحدد خط سيره في الحياة فينظم علاقاته ويشبع جوعاته ويسد حاجته حسب رغبته وهواه، ولا دخل لأحد فيه فلا بد إذن من إعطائه حريته حتى يتمكن من ممارسة إرادته، ومن هنا كان الفرد هو مصدر النظام والقوانين ولهذا قالوا الشعب مصدر السلطات والشعب هو الذي يسن قوانينه ويضع تشريعاته ومن هنا كانت العقيدة الديمقراطية -أي الرأسمالية- مصدر النظام والأساس الذي ينبثق عنه.

وأما العقيدة الإسلامية فإنها تقول بأن لهذا الوجود خالقاً خلقه وهو الله تعالى: وإن لهذه الحياة بداية وأن لها نهاية، وبعدها حساب على ما اكتسبه على هذه الفترة الزمنية التي قضاها في الحياة، إذن فلا بد أن يكون تنظيم العلاقات بين الناس وتنظيم حياة الإنسان وضبط أفعاله وتصرفاته بناءاً على أوامر هذا الخالق المدبر فكان الوحي هو الوسيلة لتبليغ الناس ما أراد بهم ربهم وما أراده لهم عن طريق الرسل -كما اقتضت سنته- فكان النظام والقانون الذي يسير علاقات الناس وينظم سلوكهم وتصرفاتهم منبثقاً من نفس العقيدة وهي (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر).

فالرسول ﷺ، بلغ الناس ما جاءه به الوحي من عند الله فكان القرآن الكريم والأحاديث الشريفة -السنة- هما ما جاء به الوحي وهما جزء من العقيدة -كتبه ورسله- وقد تضمنتا نظام كامل ومجموعة كبيرة من الأحكام الشرعية المسير لسلوك الفرد والمنظمة لحياة المجتمع، والمبينة كيفية تنفيذ هذه المعالجات وإيجادها في واقع الحياة وحملها إلى الناس كافة وكانت أسساً صالحة لاستنباط أحكام لما يستجد من مشاكل في حياة الناس.

بعد بيان ما يصلح أن ينهض بالأمة، ويرتقي بالإنسان في مدارج الكمال، وبعد تبيان كيفية الوصول إلى ذلك أي تبيان طريقة التفكير المنتجة شريطة أن تكون فكراً مستنيراً يجلو غوامض الأمور ويوضح معالم الأشياء والوقائع، ليحدد للإنسان إمكانية إقدامه على العمل أو إحجامه عنه، بناءاً على القواعد الأساسية، والمقاييس الدقيقة التي عليه أن يستعملها أثناء العملية الفكرية. بعد هذا كله لا بد من معرفة الواقع الذي يراد معالجته والتفقه فيه، حتى نتمكن من تحويله إلى ما نريد أو نتخذ حياله ما يناسبه من موقف.

فهم الواقع والتفقه فيه

قلنا آنفاً: إنه لا يمكن الحكم على أي واقع حكماً صحيحاً إلا إذا فهمنا هذا الواقع، وعرفنا ظروفه وأحواله، وما الذي أثر أو يؤثر فيه، بالإضافة إلى ما لدينا من معلومات عنه،والتأكد من صحتها، وصحة تفسيرها لهذا الواقع، وذلك بقياسها جميعها إلى القاعدة أو القواعد الأساسية أو المسلمات العقلية، عند ربط ذلك الواقع بالمعلومات حين إصدار الحكم عليه.

ولذلك كان على مريدي النهضة والارتقاء، أن يتفقهوا في الواقع الذي يراد معالجته، ومعرفة ما فيه من أمراض، ومسببات هذه الأمراض، معرفة تمكنهم من وصف العلاج الناجح، والبلسم الشافي لهذه الأمراض، بعد أن يكونوا قد هضموا فكرهم، وأبصروا طريقتهم – أي أن يكونوا حملة مبدأ مؤمنين به مخلصين له، ذلك لأن الصيدلي العالم بالأدوية، وأثرها على الأمراض والجراثيم لا يستطيع وصف أي علاج لمريض أو إعطاءه، إلا إذا عرف نوع المرض، مع أن صيدليته تحوي مئات الأصناف من الأدوية والعقاقير المقاومة للجراثيم والأمراض، فلا يعطى علاجاً إلا بعد أن يتم تشخيص المرض من الطبيب المختص. والأرقى من ذلك أن يقوم الطبيب بالتحاليل اللازمة، وزرع الجرثومة ثم إجراء فحص التحسس لهذه الجرثومة المسببة للمرض، ومع أي المواد تتجاوب، أي معرفة أشد العقاقير تأثيراً عليها، فالمعالجة تقتضي أولاً تشخيص المرض، ثم معرفة الجرثومة المسببة للمرض، ثم معرفة العقار الذي يقضي على هذه الجرثومة، ثم إعطاء العلاج للمريض بالجرعة الكافية للعلاج، وما يحتمله الجسم. ومن هنا نقول: نريد النهوض بالمجتمع، فما هو المجتمع؟ وما هي الأمراض التي يعاني منها؟ ثم ما هي أسبابها –أي ما هي الجرثومة المسببة لها؟– ثم معرفة نوع العلاج الذي يزيل هذه الأسباب فتزول معها الأمراض.

المجتمع – اختلفت التعاريف في تحديد معنى المجتمع، مع أنه واقع محسوس. فمنهم من نظر إليه نظرة سطحية، فقال: إن المجتمع هو مجموعة من الأفراد. ومنهم من قال: إنه جماعة من الناس وحدهم الآمال والآلام. ومنهم من قال: إنه وحدة سياسية جمعها نظام سياسي واحد، ومنهم من قال: إنهم جماعة اتحدوا لتحقيق أهداف مشتركة. ومنهم من قال: إنهم جماعة من الناس بثقافة واحدة وشعور بالوحدة للمحافظة على وجودهم، وهكذا. ومهما يكن من أمر، وما دام أن المبحوث عنه –أي المجتمع– واقع ملموس، ويمكن إدراكه بالعقل، والحكم عليه حكماً صحيحاً؛ إذاً كان علينا تحديد معنى المجتمع، ومعرفته على حقيقته، حتى تسهل معالجته، ومن المعروف بداهة أن الإنسان كائن إجتماعي، لا يعيش منفرداً بل لا يمكنه العيش منفرداً. وإنما يعيش في جماعة، أو في مجموعات كبرت أم صغرت. وإن كل إنسان يسعى دائماً لسد حاجاته، وإشباع جوعاته، وإرضاء رغباته، والتي غالباً ما تكون في حيازة غيره، أو مع غيره. لذلك فإن أي جماعة أو مجموعة من

الناس لابد أن ينشأ بينها علاقات يتمكن بها الأفراد من سد حاجاتهم، وإشباع جوعاتهم وإرضاء رغباتهم، ولتحقيق ذلك لابد من اتفاق بينهم على أفكار معينة، يتم على أساسها تسيير هذه العلاقات، ومفاهيم تحدد سلوك هذه الجماعات، وكيفية معينة لحماية المصالح المشتركة بينهم وحمايتهم. ومن البديهي كذلك أن تشعر الجماعة شعوراً جماعياً بالغبطة والسرور لما يوافق ما اتفقت عليه من أفكار ومفاهيم منظمة لحياتها وشؤونها، وأن تشعر شعوراً جماعياً بالغضب والكراهية والاشمئزاز لما يخالف تلك الأفكار والمفاهيم التي اتفقوا عليها. مثلاً نرى القرية أو الحي تغمرها البهجة والسرور حين ينفذ أحدهم ما اتفقوا عليه في إشباع جوعة النوع، أي الزواج، فحين يتزوج أحد شباب القرية، أو الحي، من فتاة فإن أهل الحي أو القرية يسرون لذلك، وتظهر فيهم مشاعر الغبطة والسرور. ولكن حين يسمع أهل الحي أو القرية أن فرداً منهم خرج عما اتفقوا عليه في هذه العلاقة. فعاشر فتاة معاشرة مخالفة لما اتفقوا عليه، كالزنى مثلاً، فإن مشاعر الكراهية والبغض تشمل بشكل جماعي أهل ذلك الحي أو القرية. يستنكرون ما قام به ذلك الفرد من مخالفة لما اتفقوا عليه –أي لعاداتهم وتقاليدهم– وقد يقومون بطرده من بينهم أو قتله.

وحين اتفقت الجماعة على تنظيم تبادل السلع والحاجيات بكيفية معينة كالبيع أو المقايضة أو التبادل. فهم يسعون لانتظام هذه العلاقة بينهم بالشكل الذي اتفقوا عليه،ولكن حين يقوم أحدهم بمخالفة ما اتفقوا عليه للحصول على حاجته، فيسرق، أو ينهب، أو يحتال، فإنهم يحتقرونه أو ينبذونه ويسودهم شعور البغض والكراهية نحوه.

وكذلك الحال مع كل علاقة من علاقاتهم التي اتفقوا عليها، ومع كل تصرف لهم يتصرفون فموافقة أعرافهم ترضيهم،ومخالفة أعرافهم تسخطهم.

وبما أن وجود العلاقات الدائمة حتمية في الجماعة إذ كانت العلاقات الدائمة هي الأساس في تكوين المجتمع، وبما أن العلاقات الدائمة إنما كان المنظم لها هو العرف العام أي وحدة الأفكار والمشاعر، ووحدة المفاهيم والأحاسيس، إذاً فالعرف العام –أي الأفكار والمشاعر– هو الدعامة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع. ومن المعروف بداهة أن الإنسان كائن اجتماعي، وليس كائناً آلياً، فإن فيه قابلية الخروج عما اتفق عليه المجتمع. فالإنسان كتلة من الدوافع والأحاسيس، تتولد عنها جوعات مستمرة وهو يندفع في الحياة لإشباعها. وقد تطغى إحدى هذه الجوعات فيندفع لإشباعها دون مراعاة ما اتفقت عليه الجماعة، لذلك كان لابد للجماعة أن تتفق على كيفية معينة، وبأفكار ومفاهيم معينة تعالج فيها مثل هذه الحالات، وتضبط سلوك الأفراد.هذا من جهة، ومن جهة ثانية هناك تكاليف عامة من مصالح الجماعة المشتركة فلا يتأتى للفرد مباشرتها مع تعلق مصالحه بها، مثل شق الطرق، وتأمين التطبيب والتعليم والأمن، واستخراج الثروات المشتركة، وغير ذلك، فلا بد إذن للجماعة من الاتفاق أيضاً على طريقة ما، يتم بها رعاية شؤونهم، وتحقيق أمنهم الداخلي والخارجي. ولذلك كان لابد من اختيار من يتولى القيام نيابة عن الجماعة بتنفيذ ما اتفقت عليه الجماعة.

ومن هنا: نجزم يقيناً أن المجتمع مكون من جماعة من الناس بينهم علاقات دائمة، مبنية على أفكار ومفاهيم واحدة، ومسببة مشاعر واحدة، وينتظم هذه العلاقات نظام يضبط سلوك الأفراد ويرعى شؤون الجماعة، ويفض المنازعات، ويفصل في الخصومات، ويمنع المخالفات، وهذا يعني أن المجتمع يتكون من مجموعة من الناس لها عرف عام، لأن العرف العام هو وحدة المشاعر والأفكار. ولها نظام. وصلاح المجتمع إنما يقاس بصلاح العرف العام الذي يكتنفه، والنظام الذي ينتظمه. وبهذا نكون قد عرفنا الواقع الذي نريد معالجته_ أي نكون قد عرفنا المجتمع بمكوناته.

هذا هو واقع المجتمع، وهذه هي الأسس التي يقوم عليها المجتمع، أي مجتمع.ومقياس صلاحه وفساده، هبوطه وارتفاعه، نهوضه وكبوته، جموده وتحركه، وحدته أو تمزقه، فوحدته تتجلى بمقدار موافقة النظام للعرف العام، وبمقدار التزام الناس بما ورثوه من عرف عام، وعادات، وتقاليد، وإيمان بها ووعيهم عليها.

وصار من اليسير تحديد الأمراض التي أصابت مجتمعنا حتى أصبحت مزمنة، ومعرفة أعراض هذه الأمراض، وبالتالي معرفة العلاج الناجح، والبلسم الشافي لهذه الأمراض.

ولعدم وضوح هذه الصورة، وعدم معرفة مكونات المجتمع ومقوماته والأسس التي يقوم عليها. وبالرغم من إدراك الجميع وإجماعهم على أن المجتمع يعاني من أمراض خبيثة، وأخرى مزمنة، وأنه ما زال يهوي إلى الحضيض، ولم تستطع جهود العاملين فيه على إنهاضه، أو وقف انحداره على الأقل، ذلك لأنهم أخطئوا مواطن الداء، ولم يستطيعوا تشخيص الأمراض الموجودة فيه، ولا معرفة المسببات لهذه الأمراض، أي معرفة الجرثومة التي نخرت جسمه، وبالتالي، فإنهم أخذوا يحاولون معالجته بعلاجات خاطئة، قد تتناول في بعض الأحيان بعض الظواهر والأعراض الناشئة عن المرض، لا معالجة المرض نفسه. وقد حاولوا تركيز مقولة في أذهان الناس بجعلها هي المرض، ولا بد أن تصرف الأموال وتبذل الجهود في سبيل إزالتها، تلك المقولة هي أن مل نشكو منه، والعلة التي نعانيها هي الفقر والجهل والمرض. وتوجهت الأنظار نحو معالجة هذه الأمراض، بل الأصح هذه الأعراض فدعوا إلى زيادة الإنتاج، وتنمية الثروة، وإدخال التقنية في المجالات الاقتصادية، وأكبُّوا على دراسة علم الاقتصاد، وتنمية الثروة بالخطط الخمسية أو العشرية، بل وأغرقوا البلاد بالقروض، لإنشاء السدود وشق الترع والقنوات، وتعبيد الطرق وتوسيع الموانئ والمطارات وغير ذلك، مع بناء بعض المصانع الاستهلاكية، أو تجميع الآلات أو مصانع المنتجات البترولية مما يشاهد بالحس حيثما سرنا، وفي أي قطر عشنا. وما زال المجتمع ينحدر نحو الهاوية.

وقالوا لجهل، فأعدوا له ما استطاعوا من قوة، وأعلنوا عليه الحرب، وأخذوا يطاردونه في كل قرية، ابتداء من الحضانة فالروضة فالتمهيدي فالمراحل الدراسية حتى الجامعة والشهادات العالية، وانتهاء بملاحقته عند كبار السن ومن فاتهم القطار التعليمي، فخاضوا معه حرب محو الأمية. حتى انتهت الأمية في بعض أقطارنا أو كادت. وحتى بلغت نسبة الجامعين وحملة الشهادات كالماجستير والدكتوراه والأساتذة -أي الشهادات العالية- أعلى بكثير من كثير من الشعوب الناهضة

والمتقدمة، وفاضت عن الحاجة وحتى اضطرت هذه الشهادات للهجرة والبحث عن موطن آخر. وماذا كانت النتيجة، هل توقف الانحدار؟ النتيجة هي هجرة الكثير من العقول والشهادات، وزيادة هائلة في الموظفين حتى غصت بهم الدوائر والإدارات، والآلاف المؤلفة من حملة مثل هذه الشهادات يريقون ماء وجوههم على أبواب الدوائر والإدارات يبحثون عن وظيفة، أو فرصة عمل تهيئ لهم عيشاً كريماً. هذا من جهة، ومن جهة أخرى اضطرار الدول القائمة لاستيعاب البعض، لا لإملاء شاغر، أو سد فراغ، فالدوائر متخمة بموظفيها، وإنما لمحاولة التمويه واستيعاب أكبر عدد ممكن من هؤلاء الناس. وهذا مما يؤدي إلى صرف الأموال وهدرها، وإرهاق ميزانية الدولة، بمصاريف لا طائل تحتها. هذه بعض النتائج التي لا تغيب عن عين أحد يريد أن يتفحص تلك النتيجة.

كما حصل في محاربة الفقر والجهل، حصل مثله في محاربة الأمراض فلم تبقى مدينة إلا وفيها العديد من المصحات والمستشفيات، ولم تبق قرية إلا وفيها عيادة أو مستوصف. حتى بات الآلاف من حملة شهادات الطب وعلى جميع المستويات، من طب عام أو طب شرعي، أو اختصاص في كل جهاز من أجهزة الجسم، بات هؤلاء جميعاً بلا عمل، بل ولا دكان صغير يباشر فيه مهنته، ويظهر فيه براعته، أو على الأقل يعود عليه بما يكفيه وأهله. وبات زملاؤهم أو لنقل أعوانهم من الصيادلة ينتظرون دورهم لسنوات حتى يؤذن لهم، أو يحصلون على إذن يخولهم أن يفتتحوا دكاناً يبيعون فيه بضاعتهم –أي الأدوية–. فهل نهض المجتمع أو استطاع هؤلاء جميعاً وقف انحداره على الأقل.

كان هذا الاندفاع في هذا الطريق، وهذه هي النتائج التي وصلوا إليها، فلم نحصل على جديد، ولم نرتق فتقاً في مجتمعنا، وكانت تلك النتائج حتمية، وذلك للخطأ في فهم العلة الحقيقية التي سببت انحدار المجتمع عن المستوى اللائق به، ولم نزدد إلا سوءاً في كافة النتائج التي توصلوا إليها. فزيادة الثروة والتنمية الاقتصادية أدت إلى التباهي في الثراء الفاحش، وبناء العمارات الفارهة،واقتناء السيارات الفخمة، والبحث عن أحدث موديلات باريس، أو شيكاغو، والفقر المدقع والحسرة المؤلمة عند الآخرين.

ومحاربة الجهل: أدت إلى تكالب الناس على الحصول على الشهادات العالية، والتباهي بها، أو إراقة ماء الوجه على من بيدهم زمام الأمر للحصول على وظيفة يؤمن بها مستقبله، كما يقولون، وإرهاق ميزانية الدولة في استحداث وظائف لا جدوى منها. بالإضافة إلى هجرة الكثير من حملة الشهادات إلى البلدان التي يستطيعون فيها تأمين لقمة العيش لهم. ومحاربة المرض: أدت إلى توجه الطلبة للحصول على شهادة تخوله أن يصبح طبيباً أو صيدلياً يفتح دكاناً يبيع فيه بضاعته مما جعل في الأردن وحدها ما يزيد عن سبعمائة طبيب ينتظرون الدور في التعين ومثلهم أو ضعفهم صيادلة ينتظرون الإذن التجاري، وأضعافهم طلبة سيخرجون خلال السنوات المقبلة. ويقفون بذلة مرة، ويمسحون الجوخ أخرى، أو يلجأون إلى وساطة وجه أو مال يؤمن لهم وظيفة، والأخطر من ذلك كله هو عملية تضليل الشباب والناس عن إدراك حقيقة المرض

الذي يعاني منه المجتمع، ومعرفة أسبابه، حيث إنهم استطاعوا أن يوجدوا حول مقولتهم الكاذبة رأياً عاماً طاغياً، أودى بأذهان الشباب والناس لتصديق تلك المقولة الكاذبة.

وهناك من أخطأ في فهم مكونات المجتمع ومقوماته، وتصرف في عملية إصلاح المجتمع وتقويمه بناء على سوء فهمه لمكونات المجتمع ومقوماته. فقد ظن هؤلاء -أو قيل لهم- إن المجتمع مكون من أفراد، فهو مجموعة أفراد،صلاحه بصلاح الفرد، وفساده بفساد الفرد. فاندفعوا في هذا الطريق محاولين إصلاح الفرد كي يصلح بذلك المجتمع، وقد فاتهم في ذلك أمران.

الأول: إن المجتمع ليس مجموعة أفراد، وليس مجموعة من الناس فحسب، بل هو كما ذكرنا سابقاً مجموعة من الناس بينهم علاقات دائمة تقوم على عرف عام، ويرعاها نظام. وفساد الجماعة وصلاحها موقوف على صلاح العرف العام والنظام وفسادها كذلك. وقد سبق ووضحنا ذلك.

الثاني: معرفة مقومات الفرد، ومقارنتها بمقومات المجتمع ليتضح الفرق، وتظهر الطريق. فإنه حين نقول مقومات الفرد وصلاحه، إنما يعني ذلك كل ما يتعلق بشخصه وقضاء حاجاته الشخصية. والفرد واقع ملموس، نستطيع أن نتبين حقيقته، ونعرف مقوماته، ثم نعقد المقارنة بينها وبين مقومات المجتمع، فالفرد إنسان تسيره أفكاره ومفاهيمه عن الحياة، فالأصل فيه إذن تلك القاعدة الفكرية التي تنبثق عنها مفاهيمه، وتبني عليها أفكاره، وأعني بذلك العقيدة، فالمقومة الأولى للفرد عقيدته، ولهذا الفرد عقيدة لربه، علاقة العبد بمولاه، فلا بد له من صفات حميدة يتصف بها في حياته، وأعني بها أخلاقه، وهذه هي المقومة الثالثة. ولهذا الفرد كذلك علاقة مع غيره للحصول على حاجته، أو إشباع جوعته، أو إرضاء رغبته، فلا بد له من قيد يقيد تعامله مع غيره، وأعني بها معاملته وهي المقومة الرابعة، ومن هنا نقول: إن مقومات الفرد هي العقيدة والعبادة، والأخلاق والمعاملة. وأما مقومات المجتمع فهي -كما سبق وبينا- الأمور التي جعلت الجماعة مجتمعاً، وبنت منهم كياناً متميزاً. فالعلاقات الدائمة بينهم، والعرف العام. المسير لهذه العلاقات، والحافظ لوحدتهم، هي مقومات المجتمع. وصلاح الفرد وفساده موقوف على مقوماته وهي العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة، وصلاح المجتمع موقوف على مقوماته، أي موقوف على مفاهيمه وأفكاره وما ينشأ عن هذه الأفكار والمفاهيم من مشاعر الغضب والرضا وما ارتضى هذا المجتمع من نظام لرعاية شؤونه وحفظ وحدته، وباختصار، فإن مقومات المجتمع هي الأفكار والمشاعر والنظام المنبثق عن هذه الأفكار. فهل هناك من شبه بين مقومات الفرد ومقومات المجتمع؟

ومن هنا كانت الجهود التي تبذل في التوصل لإصلاح المجتمع عن طريق إصلاح الفرد جهوداً ضائعة، ولن تؤدي مطلقاً لأكثر من زيادة عدد الملتزمين بذلك المنهج، والسائرين عليه، ولا يقال إنها طريق طويلة. لا يقال ذلك، بل يقال: إنها طريق لن توصل مطلقاً إلى إصلاح المجتمع وتقويمه، لأنها ليست الطريق لذلك، طالت أم قصرت. فلا دخل لها في مقومات المجتمع ولا إلى ما يبنى عليه المجتمع ولا الذي جعل مجموعة من الناس جماعة.

فمثلاً: إن قمة ما يمكن أن نصل بالفرد من الصلاح هو التزامه بالواجبات الشخصية عليه وما هو فوق الواجبات الشخصية من السنن والنوافل والمستحبات وأن يبتعد عن المحرمات، وعما هو أقل من المحرمات كالمكروهات، منبثقة هذه عن عقيدة صافية وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر عن عقل وإدراك وبينة. هذا من حيث العقيدة وأما من حيث العبادة فهو يصلي الصلاة المكتوبة في المسجد جماعة في أول وقتها، ويتبعها أو يسبقها بالسنة الراتبة، كما لا يفوته قيام الليل والتهجد، ثم هو يصوم رمضان ويتبعه بست من شوال ويوالي في العام صوم داود عليه السلام، ولا يمكن أن تفوته تلك الأيام البيض من كل شهر وينفق من ماله حتى لا يبقى فيه ما يوجب عليه الزكاة، ثم هو يحج ويعتمر كل عام، ثم هو من حفظة القرآن المجيد، المجيدين لتلاوته، المداومين عليها. بالإضافة إلى صلة رحمه، والسلام على من عرف ومن لم يعرف، تراه هاشاً باشاً، دمث الأخلاق، وفياً بالعهد، أميناً، صادقاً، قوي الجسم، وهو أبعد الناس عن المحرمات، ولا يلتفت إلى الخبائث، ولا يأكل البصل والثوم يوم الجمعة، أو حين ارتياد المساجد والمجالس. ولا يقدم على قضاء مصلحة أو إشباع جوعة حتى يسأل عن الحكم الشرعي فيها، فمقياسه الحلال والحرام فهل هناك صلاح أكثر من ذلك مما يتعلق بشؤونه. فلو افترضنا الكثرة الكاثرة من الأمة والناس بلغ بهم الحال إلى هذا الحد من التقوى والصلاح. فهل يصح أن يقال إن المجتمع أصبح صالحاً. مع بقاء نظمه وقوانينه على ما هي عليه؟ إنني أقول: لو بلغ الحال بالناس إلى هذا الحد فإن الإسلام لا يعتبر موجوداً في واقع الحياة، ويبقى أربعة أخماسه وزيادة معطلاً، وهي ما يتعلق بشؤون الجماعة، ورعاية الأفراد، وتنفيذ الفكرة، وأمن المجتمع وحمايته وحمل الدعوة للعالم لأنها هي مقومات المجتمع. وهذه الأبواب الأربعة هي:

مسؤولية الدولة وليست مسؤولية الفرد

١- إقامة الحدود: من المعروف أن الإنسان ليس ملاكاً، ولا كائناً آلياً، وإنما هو كائن اجتماعي ابتلي بالخير والشر فتنة. وفيه قابلية الافتنان، فقد تزل القدم، أو يطغيه شيطانه، أو شيطانه، فيرتكب مخالفة، أو يحمل إثماً، أو يقصر في فرد، أو يعتدي على غيره، فمن يضرب على يده؟ أو يوقفه عند حده؟ ويجبر كبوته؟ وهل يحق للأب أن يقيم الحد على ابنه الزاني أو السارق؟ لم يقل أحد من المسلمين بذلك. لأنه من المعروف من الدين بالضرورة، أن حفظ الجماعة وفض المنازعات، وحفظ الحقوق، وبيانها، وإلزام الأفراد بالانضباط ليست مسؤولية الفرد، بل مهمة من أنابه المسلمون عنهم، ليتولى هذه الأمور. أي مهمة النظام والقائمين على تنفيذ النظام. فهي فرض على المسلمين ككل. وأناب المسلمون عنهم خليفة يتولى عنهم تنفيذ ما فرض عليهم بوصفهم جماعة. فهو المسؤول عن تنفيذ قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾[١]. مع أن المخاطب بها جماعة المسلمين، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا﴾[٢]، وهكذا. وليس لأي فرد الحق بإيقاع العقوبة، أو إقامة حد على أي مخالف إلا إذا كان نائباً عن المسلمين أو كلفه الخليفة بصفته نائباً عن المسلمين جميعاً في ذلك. فهي مسؤولية الخليفة حفظ هذا الجزء من العلاقات العامة وما تقوم عليه الجماعة حيث يقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ﴾[٣].

٢- رعاية شؤون الجماعة بوصفهم جماعة: من المعروف أن للجماعة -المجتمع- شؤوناً ومرافق لا بد من إيجادها ورعايتها. وقد فرضها الله على المسلمين بوصفهم جماعة، وجعلها من مسؤولية الراعي للجماعة لا من مسؤولية الفرد، ولا مسؤولية مجموعة من الأفراد، مثل إيجاد المرافق العامة كالطرق، وساحات البلدة والمدارس والمستشفيات ورعاية المصالح، كتأمين المواصلات كالبرق والبريد وتنمية الثروة وتوزيعها، كاستخراج الثروات الطبيعية والمعادن والنفط وغيرها. ورعاية أموال وممتلكات الجماعة، وغير ذلك مما هو من مرافق أو مصالح الجماعة. فهل يجوز للفرد أو يجب عليه مباشرة هذه الأمور، دون أن يكون في مركز المسؤولية. نائباً للمسلمين، أو أوكل إليه نائب المسلمين -الخليفة- مثل هذا الأمر؟ وحين استعرضنا مقومات الفرد، هل كانت معرفة هذه الأمور ومباشرتها جزء من مقوماته؟ وهل صلاح الفرد واستقامته يؤدي إلى تسيير هذه العلاقات وتأمين هذه المرافق والمصالح؟ أم إنه لا بد من أجهزة يعينها من أنابه المسلمون عنهم -الخليفة- تتولى هي رعاية هذه الشؤون وتأمين مرافق المسلمين.

---

[١] سورة النور: ٢.

[٢] سورة المائدة: ٣٨.

[٣] سورة البقرة: ١٧٩.

٣- حماية أمن المسلمين داخلياً وخارجياً: هل هي مسؤولية الفرد ليقوم بحفظ الأمن في الداخل؟ فيتولى دور الشرطة والقضاء، ويلاحق المجرمين والخارجين عن القانون؟ أم إن هناك جهازاً خاصاً بهذا الأمر؟ فمن المعروف أن أي مجتمع مهما بلغ من السمو والرقي، لا بد وأن يوجد فيه من يخرج على ما اتفق عليه الناس من أعراف صيغت قوانين تنظم حياتهم، أو على احتمال وجود مثل هذا الأمر، فلا بد من وجود جهاز خاص يبعث الأمن و الطمأنينة في نفوس الناس، ليأمنوا على أنفسهم وممتلكاتهم وكرامتهم وحقوقهم. هذا من حيث الأمن الداخلي، وأما الأمن الخارجي وهو ما يسمى بحماية الثغور فإن أي كيان سياسي يقوم على قطعة من الأرض معلومة الحدود، يحيط به كيانات أخرى ومن طبيعة ذلك في حياة الناس والمجتمعات أن تجري منازعات وخصومات، قد تصل إلى حد الحروب و التطاحن. أو كما قيل (من لم يكن ذئباً أكلته الذئاب) فأي مجتمع لا يستطيع بوسيلة أو أخرى حماية حدوده وأمن ثغوره. فاجتياحه من دولة أخرى أو تقسيمه بين جيرانه، أو إخضاعه لسلطان إحداها أمر لا مفر منه. كما هو مشاهد محسوس اليوم أو عبر التاريخ. فهذه طبيعة الناس والمجتمعات. فهل من مقومات الفرد أن يكون هو جيشاً أو قوة تستطيع حماية حدود الكيان السياسي الذي ينتمي إليه؟ إن هذا كذلك لم يرد حين بحث مقومات الفرد وعوامل صلاحه. فالمسؤول عن حفظ الأمن داخلياً، وعن حماية الثغور خارجياً هو من أنابه المسلمون عنهم في القيام بما كلفوا به بوصفهم جماعة، فعليه مسؤولية إعداد جهاز الشرطة لحفظ الأمن في الداخل وعليه نفسه مسؤولية إعداد الجيش والإعداد لملاقاة العدو مع أن المخاطب في ذلك جماعة المسلمين بوصفهم جماعة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1].

٤- حمل الدعوة: إن كل مجتمع مبدئي، بل كل إنسان يحمل فكرة صدق بها أو مبدءاً آمن به، فإن هذه الفكرة وهذا المبدأ لا يطيق أن يبقى حبيساً في نفس صاحبه، لأن المبدأ نفسه يحمل في ثناياه بل في أسسه وجوب نشره، وكيفية حمله للناس، وإيجاده في واقع حياتهم لأنه كما سبق وبينا مكونات المبدأ أي مبدأ، حين قلنا إن المبدأ هو عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام. وقلنا أيضاً إنه فكرة للعيش وطريقة للتنفيذ والفكرة فبه هي:

أ- عقيدة المبدأ.

ب- المعالجات التي انبثقت عن عقيدة المبدأ لمعالجة مشاكل الحياة.

ج- حمل الدعوة لاعتناق المبدأ والإيمان به.

وأما طريقة تنفيذه والحفاظ عليه فقد قلنا إنها:

أ- المحافظة على عقيدة المبدأ.

[1] سورة الأنفال: ٦٠

ب- كيفية تنفيذ كل معالجة من المعالجات التي جاء بها.

ج- كيفية حمل الدعوة للناس.

ويتولى تنفيذ أحكام الطريقة، وتنفيذ ما جاءت به من معالجات، والقيام بأعباء الدعوة ونشرها للناس وحملها للعالم بأسره. يتولى تنفيذ ذلك الخليفة والأجهزة التي يعينها لذلك بصفته نائباً عن المسلمين.

إذن فالمبدأ هو الذي أوجب علينا حمله، وحدد لنا كيفية ذلك، فأوجب على حملته إخضاع الناس لأحكامه، ومعالجاته، ولا يتم ذلك إلا بالجهاد. ولم يترك المبدأ أسلوب نشره للأفراد ونشاطاتهم. هذه طبيعة المبدأ، وأساس من أسسه وجوب نشره بالكيفية التي حددها. وحمل الدعوة للناس هي الأساس في علاقات المسلمين كجماعة مع غيرهم من كيانات الكفر المحيطة بالمسلمين. فالسياسة الخارجية أو رعاية شؤون الإسلام والمسلمين خارجياً، أي العلاقات بين المسلمين وغيرهم من كيانات الكفر يتولاها أيضاً من أنابه المسلمون عنهم -الخليفة-.

والمبدأ نفسه هو الذي قسم العالم إلى دارين، دار إسلام يمثلها الخليفة، ودار الحرب أو دار الكفر المتمثلة بكافة كيانات الكفر. وقسم هذه الكيانات الكافرة إلى دول معاهدة، وأخرى محاربة حكماً، وأخرى محاربة فعلاً، وحددت علاقات المسلمين بها بموجب ما قسمه المبدأ.

وما سار عليه رسول الله ﷺ طيلة حياته في تنظيم هذه العلاقات الخارجية منذ وضع دستوره الأول في المدينة إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى.فقد عاهد نيابة عن المسلمين ورعى غير المسلمين تحت سلطانه، وأخذ الجزية منهم، وحارب كيانات ودولاً كانت تحيط به، لكسر الحواجز المادية التي تقف بوجه بسط سلطان الإسلام على الناس. وعلى هذه الساسة سار صحابته الكرام، وإلى آخر يوم من أيام الدولة الإسلامية، فهل هذه مهمة الفرد أو تدخل تحت مقوماته وأسس صلاحه؟.

هذه لمحة موجزة مقارنة بين ما هو من مقومات الفرد ومقومات المجتمع، ولو أنها تحتاج إلى كثير من التفاصيل والإيضاح حتى يدرك القائمون على هذا الأمر، والسائرون في هذا الطريق - طريق إصلاح الفرد ليصلح المجتمع إن عملهم هذا لن يوصل مطلقاً إلى ما يصبون إليه من صلاح المجتمع، واستئناف الحياة الإسلامية، والنهوض بالأمة إلى المستوى اللائق بها. لأن طريقتهم هذه تبدأ بالفرد وتنتهي بالفرد ولا تعدو ذلك مطلقاً.

والسبب الوحيد الذي أدى إلى هذا الخطأ الفاحش ليس سوى سوء فهم، وعدم إدراك للواقع الذي يريدون إصلاحه. أي فهم مكونات المجتمع ومقوماته. لذلك فإننا نتمنى عليهم أن يعيدوا النظر في فهم هذا الواقع، ومن السهولة

بمكان التميز بين مجتمع قرية لا يتعدى سكانها ألف نسمة وركاب سفينة يعدون بالآلاف. فالقرية مجتمع كامل، أما ركاب السفينة فهم جماعة أفراد لا يشكلون مجتمعاً.

ولو كان كما يزعمون أن المجتمع هو مجموعة من الأفراد. إذن لتعددت المجتمعات في المجتمع الواحد، ولتفككت وحدة كافة الكيانات السياسية القائمة بناء على هذا الفهم.

وكقاعدة أساسية لإصدار أي حكم على أي شيء لا بد من معرفة الواقع والتفقه فيه، قبل إصدار الحكم ووضع المعالجات.

ولم يقتصر الأمر على فئة واحدة من هذه الحركات العاملة على إنهاض الأمة بل تعددت الفئات وبأسماء مختلفة ومناهج متعددة ولكنها جميعها سارت في طريق واحد جرها إليه سوء الفهم لواقع المجتمع، وإنه وإن اختلفت أسماؤهم وتعددت مناهجهم، فإنهم لم يخرجوا عن الخط الأول الذي تمت مناقشته آنفاً. إذ لا يوجد فروقات كبيرة بينها، وكلها تدور حول مقومات الفرد وسبل صلاحه، سواء منها من اقتصر على العبادات وحرم العمل السياسي، ودعا إلى الانقطاع إلى الله في العبادة، أو من شمل حياة الفرد ككل. أو من يرى أن طريق إصلاح الفرد توصل حتماً لصلاح المجتمع، وإقامة كيان ودولة تتولى شؤون الجماعة وتعيد للمسلمين عزتهم ومجدهم.

والغريب في شأنهم أنهم يقولون بالوصول إلى إصلاح المجتمع وإقامة الدولة وليس لديهم أي تصور عن صلاح المجتمع لأنهم لم يدركوا مقوماته وليس لديهم أدنى صورة عن الدولة التي يريدون مع أن القاعدة العقلية، بل المسلمة البدهية تقول: (فاقد الشيء لا يعطيه).

أما شبهة الاهتمام بأمر الداعية، ومن يحمل فكرة الإصلاح ويعمل لها، فإنه من نافلة القول أن يكون الداعية، أو حامل الفكرة نسخة طبق الأصل عما يحمل من عقيدة، وما يدعو إليه من أفكار، وإلا كان سبة على ما يحمل، وإساءة لما يدعو إليه. فالمسألة هي هذه التكتلات الصالحة المؤمنة – وليس مجال طعن بأشخاص أو تصرفات أفراد أي الطريقين تسلك؟ طريق إصلاح المجتمع أم طريق إصلاح الفرد؟ أما وجوب أن يكون الداعية صالحاً مؤمناً فهذا أمر مسلم به، ولا أظن أن هناك كتلة أو جماعة أو حزباً لا يهتم لتربية شبابه وإلزامهم بما يدعو إليه. وأن يقبل في صفوفه أشخاصاً ليسوا من جنس فكرته ودعوته. فمن يدعوا لقيادة الناس بفكرة معينة لا بد أن يكون مهيأً نفسياً وسلوكياً لما يدعوا إليه. كما أنه لابد أن يكون تنظيم سلوك الأفراد من ضمن الثقافة التي يتبناها ذلك الحزب أو الجماعة أو التكتل. ولذلك لا يصح أن تكون هذه الشبهة شبهة يختفي البعض وراءها. كقولهم: كان الصحابة يقولون كنا نتعلم العشر آيات فو الله ما نجتازها لغيرها حتى نعمل بها. وهنا أحب أن أسأل متى نزلت التكاليف الشرعية؟ وأين الأعمال والتكاليف في السور المكية؟ بل المقصود من قول الصحابة من أنهم كانوا لا يجتازون هذه الآيات حتى يفهموا معانيها ويحفظوها ويترلوها على الواقع

المشخص أمامهم سواء في مهاجمة أفكار الكفر أو أئمة الكفر أو فساد العلاقات القائمة بين الكفار لأن هذه هي المواضيع التي كانت تعالجها السور والآيات.

إذن فالمسألة هي أي سبيل تسلك هذه التكتلات والأحزاب المؤمنة الملتزمة. أتسلك طريق إصلاح الفرد أم طريق إصلاح المجتمع؟ هذه هي المسألة، أما الذين يدعون إلى إصلاح الفرد بعقيدته وعبادته. ليصلوا إلى صلاح المجتمع وبناء الأمة، وإقامة الدولة، ويحرمون على أنفسهم العمل السياسي، ومحاسبة الحاكم، فإن مصيبتهم وبلوتهم أعظم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1]. إننا ندعوهم لتدبر السور المكية التي هي بيت القصيد، والمدنية إن شاءوا. من حيث إن السور المكية هي التي عالجت مثل هذه المرحلة التي نعانيها، مرحلة غياب الإسلام وهيمنة أحكام الكفر وحكامه على رقاب الناس. ليتدبروا السور والآيات وما جاءت به من مواضيع ومعالجات. ليروا بأعينهم، وليسمعوا بآذانهم، ولتعي قلوبهم ما جاءت به تلك السور والآيات من مواضيع وما تضمنته من أفكار.

وبنظرة بسيطة في تلك السور، ولكن بقلوب واعية نجد ما يلي:-

١- إنها تناولت ما في المجتمع من عقائد فاسدة وأفكار باطلة على اختلاف أنواعها، فبينتها وبينت زيفها وبطلانها، وأقامت على ذلك الحجج والبراهين، ووضعت بدلها العقيدة الصحيحة، والتفكير السليم فقد تعرضت لكل ما كان يدعيه العرب، أو يعتقدونه، وما يمارسون من عبادات وشعائر، وما في مجتمعهم من مفاهيم وأفكار، مجملة مرة، ومفصلة مرات. سواء قولهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[2]، أو قولهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[3]. أو قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[4]. أو تسميتهم الملائكة بأسماء الإناث: ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾[5] أو إنكارهم الخلق: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[6]، وتكررت الآيات التي تبين الاعتقاد الصحيح والتفكير السليم في عشرات السور ومئات الآيات. ولفت النظر لأعمال العقل في ملكوت السماوات والأرض ليدركوا عن نقل وبينه أن لهذا الوجود خالقاً خلقه وهو الله تعالى، بصفاته وأسمائه التي وصف بها نفسه، أي سار في ما في المجتمع من عقائد وأفكار باطلة بأسلوب وضع الخط المستقيم أمام الخط الأعوج. والاحتكام إلى المسلمات العقلية بطريقة تتناول تباين ما في المجتمع من عقائد فاسدة، وأفكار باطلة، من

---

[1] سورة محمد: ٢٤.

[2] سورة الجاثية: ٢٤.

[3] سورة لقمان: ٢٥.

[4] سورة الزمر: ٣.

[5] سورة النجم: ٢٧.

[6] سورة الطور: ٣٥.

شيوعية واشتراكية، ورأسمالية، ورأسمالية مرقعة، وديمقراطية، وقومية، وإقليمية، ووطنية، فتوضحها للناس وتثبت لهم بطلانها وتزعزعها في نفوس حملتها ومن آمن بها، لتضع بدلها عقيدة الإسلام صافية نقية كما جاءت من عند الله تعالى.

٢- إنها تناولت ما في المجتمع من علاقات فاسدة، ومعاملات باطلة، وتصرفات خاطئة، وعادات سيئة، ويظهر ذلك جلياً، وبوضوح كامل في سور واحدة لا تحتاج إلى عمق في التفكير ولا إمعان ولا إلى ذكاء خارق. فقد جاء في سورة الماعون: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[1]. نرى في هذه الصور القصيرة أنها تعرضت لما يلي:-

- ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ - عقيدة.
- ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ - معاملة وعلاقة بين الناس.
- ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ - معاملة وعلاقة بين الناس.
- ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ - عبادة وعلاقة مع الخالق.
- ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾ - صفة خلقية ومعاملة مع الناس.
- ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ - معاملة وعلاقة مع الناس.

وقد تكرر مثل هذا الأمر في عشرات السور بل لا تكاد تخلوا سورة من ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۞ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2] تناولت علاقات عامة مرتبطة بعقيدة - أي باليوم الآخر. ومن مثل قوله تعالى: ﴿**وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت**﴾[التكوير: ٨] إلى غير ذلك. مما لا يحتاج إلى عمق في التفكير، وإمعان نظر بل يحتاج إلى قلوب واعية، وعقول مفكرة فقط.

٣- إنها تعرضت للقائمين على أمر الجماعة من السادة والحكام والأمراء، أئمة الكفر وأولياء الشيطان، من الذين يقفون في وجه الدعوة، ويمثلون رأس الكفر فمنهم من صرحت باسمه، ومنهم من ذكرته بصفته ومنهم من كشفت فعلته أو مقالته. بل ردت على معظم ما كان يدعي. فقد تناولت بالاسم أبا لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[3]. وتناولت

---

[1] سورة الماعون.

[2] سورة المطففين: ١-٥.

[3] سورة المسد: ١.

بالصفة الوليد بن المغيرة: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[2]. وتناولت بالعمل الأخنس بن شريق: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾[3]. أو في رواية عمرو بن هشام "أبا جهل". كما وصفت تآمرهم في دار الندوة ليلة باتوا يتساءلون كيف يتصدون للدعوة، وما يقولون للناس عنها وعن رسول الله ﷺ في سوق عكاظ. فبينت تفاصيل دقيقة عما جاء في تلك الجلسة وصورت الوليد بن المغيرة. وهو يقطع دار الندوة جيئة وذهاباً. يفكر ويقدر، يعبس ويبسر، خصوصاً وأنه رد ما قاله الآخرون، من مثل قولهم نقول عنه ساحر، ونقول عنه شاعر ونقول عنه كاهن، وبين خطأ ما ذهبوا إليه وجاء الآن دوره ليقول كلمته. فقال فيه جل جلاله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۞ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[4].

كما وصفت من جاء ليقول لرسول الله ﷺ من يحيي العظام وهي رميم بعد أن سحقها ونفخ بها في وجه رسول الله ﷺ. فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[5].

حتى أولئك الذين كانوا يقولون على الله غير الحق فيما بينهم و لم يسمعهم رسول الله ﷺ و لم يسمعهم أحد كانوا يتطاولون على الله ويقولون فليعذبنا الله إن كان محمد صادقاً: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[6] الآية. فكانت تأتي الآيات لتفضح ما كانوا يتحدثون به مقيمة الدليل على صدق نبوة محمد ﷺ مثل قوله: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ الآية.

٤- لفتت أنظار الناس إلى آلاء الله سبحانه وتعالى، وخاطبت عقول البشر ليتوصلوا إلى الإيمان به وبالقرآن الكريم وبنبوة محمد ﷺ، والتسليم المطلق بما جاء في هذا القرآن ليتوصلوا إلى الإيمان بذلك عن عقل وبينة.

---

[1] سورة القلم: ١٣.

[2] سورة المدثر: ١١-٢٦.

[3] سورة العلق: ٩-١٦.

[4] سورة المدثر: ١٨-٢٦.

[5] سورة يس: ٧٨-٨٠.

[6] سورة المجادلة: ٨.

٥- وصفت حقيقة الخلق وحقيقة هذا الإنسان: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۞ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۞ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[١]، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[٢] إلى عشرات الآيات التي تبين حقيقة النفس البشرية وما فيها من دوافع وما لها من جوعات وحاجات.

٦- ذكرت من قصص الأنبياء السابقين ما يكفي ليشد عزيمة المؤمنين ويشحذهم. ويبين للرسول أن ما يلاقيه هو سنة الله في خلقه، وما يلاقيه هو ما لاقاه إخوانه من الأنبياء والرسل السابقين: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[٣]، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٤] ونختم هذا بالقول بما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٥]. وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٦].

وهناك من تجاهل هذا الوقع ولم يعن نفسه بمعرفته ولكنه يدرك أن هذا المجتمع مجتمع مريض، فراح يبحث في أصناف متعددة من الأدوية المنتشرة في العالم، مضبوعاً بما سمعه، أو شاهده أو لقنه من تقدم ونهضة وازدهار في العالم المتقدم، فأخذ منها ما بهرته أضواؤه وأعمت بصيرته أنواره وأصم أذنيه ضجيج آلاته ومصانعه، وراح يقلد أولئك القوم في دعواهم ونظام عيشهم، واعتبر أن ذلك علاج هذا المجتمع ما دام أنه سبب نهضة تلك المجتمعات والأمم فارتفعت الشارات وعلت الهتافات بوضع ما أتوا به موضع التنفيذ، حتى نلحق بركب المدنية وأعلنوها حرباً ضروساً على مافي مجتمعها وأمتهم من أفكار ومفاهيم، أو عادات و تقاليد، فهم أعداء ماضي هذه الأمة بكل ما فيه من خير أو شر، فهم يرونه كله شراً، فهذا ينادي بالحرية، ويرى أن الكبت والحرمان والتقيد بالعادات والتقاليد، وما في المجتمع من قيم، هي السبب في هذا الانحطاط وهذا البلاء. وهذا ينادي بالديمقراطية فلا يعرف منها إلا أنها كلمة أجنبية أدت إلى نهضة الغرب والشرق وآخر يحاول التوفيق بين هذه والإسلام فيقول: إن الديمقراطية هي طريق إيجاد الإسلام في الحياة. وآخر يدعوا للاشتراكية أو الشيوعية ولم ينسى أن يحاول التوفيق بين الإسلام والاشتراكية هذا إن لم يصور أن الإسلام مصدر الاشتراكية فأبو ذر رضي الله عنه هو أول اشتراكي بعد رسول الله!! وأحزاب شيوعية كانت تفتتح جلساتها بتلاوة آيات من القرآن الكريم. إلى غير ما هنالك من شعارات وعبارات منمقة ليس هذا مجال للتعرض لها. ويكفي أن أقول لكل هؤلاء: إن من ينادي بالحرية عليه أن يعرف ماذا تعني هذه الدعوة وما هي أبعادها وهل تنطبق على هذا الواقع الذي نعيشه وتصلح لمعالجته. وعليه أن يعرف هل هي نظام حياة أو أنها أسلوب من أساليب تنظيم الحياة، وهل هناك مدلول حقيقي لهذه الكلمة أم أنها

---

[١] سورة العاديات: ٦-٨.

[٢] سورة المعارج: ١٩-٢١.

[٣] سورة فصلت: ٤٣.

[٤] سورة الأحزاب: ٦٢.

[٥] سورة الإسراء: ٩.

[٦] سورة محمد: ٢٤.

كذبة كبرى لا وجود لها في العالم، وهل يمكن أن يقال هذا على مدلولها أي المجتمع بالرغم من جمع التعديلات التي أدخلت تجاوزاً على مدلولها. ألا يكفي لأحدهم أن ينظر لأي إنسان أو لأي مجتمع في الدنيا، في الشرق أو في الغرب، لينتفي من ذهنه أي وجود لهذا المعنى في العالم. وذلك لأننا نجد كل إنسان يعيش في مجتمع ما بحكم عيشه فيه، فهو يخضع لما في من نظم وقوانين، فلا يستطيع أن يتصرف أي تصرف إلا بالقانون الذي يجيزه ذلك البلد. فكل إنسان مجبر على السير ضمن ما تجيزه قوانين أنظمة البلد الذي يعيش فيه سواء أوافقت هواه أم خالفت رغباته. فسيره منضبط بالقانون وإلا كان معرض للعقوبة فلا وجود لهذا المعنى في الدنيا مطلقاً. أي معنى الحرّية.

وعلى من ينادي بالديمقراطية أن يعرف أن هذه الكلمة جوفاء، لا وجود لمدلولها أو معناها في أي أمة أو مجتمع إلى في بطون الكتب وعلى أفواه المضلِّلين والمضلَّلين، أو الذين يحاولون تحميلها معنى متخيل في أذهانهم ليس هو معناها الحقيقي. وإلا فهل هناك شعب أو مجتمع أو أمة تجتمع لتضع دستورها وتسن قوانينها؟!. بل ولا حتى مادة واحدة من الدستور أو قانون واحد من القوانين فقلة قليلة أو نخبة من الناس لا تتعدى أصابع اليدين لتضع الدستور، ومثلها فئة تسن القوانين، وأقلية تختار الحاكم. فلا الأمة تضع دستورها ولا المجتمع يسن قوانينه ولا الشعب يختار حاكمه، فأي انطباق لمعناها الذي وضعت له – حكم الشعب بالشعب وللشعب. إنها كذلك كذبة كبرى لابد من إدراكها.

والأسوأ من ذلك المنادون بالاشتراكية، فلا يميزون بين ما هو إلغاء للملكية الفردية وبين ما هو تحديد لها بالكم أو الكيف، أو منع امتلاك بعض المواد والمصالح كأدوات الإنتاج ومثل ذلك ولا يدرون هل ذلك مقتصر على النظام الاقتصادي أم هي نظام حياة كامل. فإن كانت نظام حياة كامل فما هي عقيدتها وإن كانت نظام اقتصادياً فحسب فما هي العقيدة التي انبثق منها؟

فإلى هؤلاء جميعاً نقول: قبل المناداة بعلاج ما، عليكم معرفة ما تدعون إليه على أنفسكم وأهليكم، فإن وجدتم فيه الخير لأنفسكم وأهليكم، فحاولوا تشخيص المرض الموجود في المجتمع الذي تعيشون فيه، أو تدعون لإصلاحه، هل يناسبه هذا العلاج الذي تحملونه والذي عالجتم به أنفسكم فشفيت به أو شقيت به.

مجتمعنا

إن المجتمع الذي نعيش فيه هو مجتمع كأي مجتمع، ومكوناته هي مكونات أي مجتمع، ومقوّماته هي مقوّمات أي مجتمع، وما يصلح أي مجتمع يصلحه، وما يقوم أي مجتمع يقومه. إلا أنه كما اشترطنا وجوب معرفة الواقع الذي نريد أن نحكم عليه ونعالجه، لا بد من معرفة كل شيء عنه، ومعرفة ظروفه وأحواله وما يتعلق به. ولذلك كان لابد من تطبيق هذه القاعدة على هذا الواقع، أي على مجتمعنا نحن، الذ نريد معالجته. فلا يكفي فيه معرفة مكوناته أو مقوماته حتى يصار إلى معالجتها فوراً. بل لابد من معرفة مجتمعنا معرفة تجلو كل غموض، وتزيل كل إبهام، وتلقي الضوء الكاشف على كل جانب فيه، فهل مازال يقوم على وحدة الأفكار والمشاعر؟ وهل الأعراف والتقاليد مازالت موجودة، أم تلاشت وهل حل بدلها أعراف وعادات وتقاليد جديدة؟ وهل النظام المطبق عليه، والحافظ لوحدته السياسية منبثق من عقيدة الناس أم يخالفها ويناقضها؟ وهل الهيئة التنفيذية فيه أنابتها الأمة لتطبيق هذا النظام عليها؟ أم أنها فئة باغية متسلطة؟ وهل هي مرتبطة بغيرها؟ -عميلة- أم أنها مخلصة لذاتها ولمجتمعها؟ أم أن كل شيء قد تلاشى وأصبح مجتمعنا ليس له صفة تميزه؟ أو وحدة تجمعه؟ فكره غير شعوره، ونظامه لا يلتقي مع عقيدته، هذا من حيث معرفة الواقع من كافة جوانبه، أما معرفة ظروفه وأحواله وما يتعلق به، فإن ما يمر به مجتمعنا من ظروف وأحوال لابد من وقفة معها تبينها وتجلو غوامضها حتى نستطيع معرفة وإزالة كافة العقبات التي تمنع إعطاء العلاج أو توقف تقدمه.

إن مجتمعنا -وأعني بكلمة مجتمعنا أي مجتمع قائم في العالم الإسلامي- هو كأي مجتمع فهو يقوم على مجموعة من الناس بينهم علاقات دائمة، يرعاها ويحافظ على وحدتها نظام. إلا أن الملاحظ في هذا المجتمع بالذات أن وحدة الأفكار فيه قد تلاشت بالرغم من وحدة العقيدة التي يفترض أن تكون هي القاعدة الفكرية التي ينبثق عنها وتبنى عليها كافة المفاهيم والأفكار. إلا أن هذه العقيدة لم تتخذ كقاعدة فكرية، فتكون أساساً للتفكير جمهرة الناس ومثقفيهم ومفكريهم، فهي عقيدة توارثها الناس، ولم تكن حصيلة أعمال فكر ونظر ولم تكون نتيجة تفكير وقناعة عقلية، بالإضافة إلى ذلك فقد أماتوها كعقيدة سياسية، وأبقوها حية كعقيدة روحية. وأنها مازالت في أسسها صافية نقية بالرغم مما علق في بعض أجزائها من غشاوات وما لحق بعض أفرادها من تشويه، خصوصاً بعد أن أبعدت كلياً عن واقع الحياة، أعني علاقات الناس وأنظمة المجتمع، واقتصر عملها على الجانب الروحي، وأبعدت كلياً عن المجال السياسي. ولذلك فقد بقيت في النفوس عقيدة روحية وبقيت أساساً لمعتقداتهم الدينية وما يتعلق بعلاقات الأفراد بخالقهم من حيث العبادات، أو من حيث علاقات الناس بأنفسهم من الأخلاق والمطعومات والملبوسات لذلك ظل أثرها فردياً ولا علاقة له بحياة الناس وعلاقاتهم ولا بأنظمة المجتمع ورعايتها لشؤون الناس. اللهم إلا في النظام الاجتماعي في أمور الزواج والطلاق والميراث والنفقة أو ما يسمى بقانون

الأحوال الشخصية فقد بقية العقيدة الإسلامية مصدر هذا القانون. وانتهى أثرها في تفكير الناس بما هو من شؤونهم كمجتمع.

ومع خلو المجتمع من هذه القاعدة الفكرية -العقيدة- لم يحمل المجتمع بعد عقيدة سياسية وغيرها، يبني عليها أفكاره، وتنبثق عنها أنظمته، بالرغم من تسرب بعض الآراء الفلسفية، والأفكار الرأسمالية أو الاشتراكية، وبالرغم من وجود فئة من المثقفين مضبوعة بمثل هذه الأفكار والآراء ولذلك لم يبقى في المجتمع وحدة أفكار، وعدمت في الناس طريقة التفكير المنتجة، وتسممت الأجواء ببعض الأفكار الداخلية، كفكرة الحرية والديمقراطية والاشتراكية، وغير ذلك من الآراء والأحكام والتشريعات التي لا تمت إلى عقيدة الناس بصلة، ولذلك نجزم أن وحدة الأفكار قد تمزقت وتلاشت.

وأما وحدة المشاعر التي هي الأساس الثالث من مكونات المجتمع، فقد بينا أن المشاعر إنما هي حصيلة طبيعية لما يحمل الناس من أفكار وما تركز في أعماقهم من مفاهيم، يغضبون لمخالفة هذه المفاهيم، ويسرون بوجودها ويرضون بما يوافقها، هذا هو واقع المشاعر عند الناس، وبناء على انتفاء وحدة الفكر واختلاف المفاهيم انتفت وحدة الشعور، وباختلاف الأفكار وتناقضها اختلفت المشاعر والأحاسيس، ولم يعد هناك ما يجمع مشاعر الناس إلا بالأمور التي ما زالت ترتبط مباشرة بعقيدتهم، مثل كونهم مسلمين في بعض الأحيان. أما ما سوى ذلك فلا تثور مشاعرهم ولا يهيج غضبهم وهم يرون انتهاك حرمات الله، أو الحكم بغير ما أنزل الله، أو الدعوات الإلحادية والإباحية وغيرها الكثير. بل وصل الحال في بعض المدن أنه يجتمع الفرح والحزن في البناية الواحدة في وقت واحد. ولم يراع الجار مشاعر جاره.

وبانتفاء وحدة الفكر والشعور ينتفي وجود العرف العام إلا في بعض الجزئيات، ذلك لأن العرف العام إنما يبدأ بفكرة إنما يؤمن الناس بها ويصدقونها، وتلتزمها جمهرتهم كمفاهيم تسير سلوكهم. حتى إذا تركزت في النفوس، وحركت مشاعر الغضب والرضى حيالها، وأصبحت قناعة مطلقة صارت عادة متعارف عليها. وقد ينسى أصل الفكرة أو الدليل الذي أخذت منه، أو القاعدة التي بنيت عليها، إلا أن تسيير الناس سلوكهم بحسبها أصبح قانوناً يرفض الناس بمجموعهم مخالفته ويغضبون لما يخالفه، تكون هذه العادة قد أخذت دور العراقة والتركيز، فأصبحت عرفاً عاماً لجمهرة الناس. فمثلاً: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[1]. هذا القول فكرة مصدرها الوحي آمن بها قائلها وتبعه في ذلك من آمن به. لأنها فكر أدرك واقعه وجرى التصديق به فصارت مفهوماً يسير سلوك من آمن به، ولما تقدم عليها الزمن أصبح إكرام الضيف أمراً عادياً، يسير مع الناس ويسير الناس أي أصبح عادة. إلا أن هذه العادة شملت القطاع العام من الناس، وتعارفوا على هذا الأمر حتى جرى في عروقهم وصار لا يجرؤ أحد على مخالفته، وإلا تعرض إلى غضب ومقت الناس ونقمتهم، ونعتوه بشتى التهم التي تنقص من قدره وكرامته.

[1] رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي شريح وعن أبي هريرة وقد صححه السيوطي في الجامع الصغير. ونص الحديث «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليقل خيراً أو ليسكت**».

مع أنه لو سألنا جمهرة هؤلاء الناس عن دليل هذا العرف، والفكرة التي بني عليها، ومصدر هذه الفكرة، لما وجدنا إلا القلة القليلة التي يمكن أن ترده لدليله وتعرف أصله وتستشهد بحديث رسول الله ﷺ. وبالتالي فإن مجتمعنا اليوم لا يحكمه عرف ولا تسوده أفكار ولا تهتز مشاعره لأمر. هذه حقيقة واضحة لا بد من معرفتها قبل وضع العلاج.

أما موضوع النظام وهو الأساس الرابع من مكونات المجتمع، والركن الأساسي في الحفاظ على وحدته ورعاية شؤونه. فالنظام في مجتمعنا مهمته الأولى المحافظة على تمزيق الأمة مع المحافظة على بقاء هذه الأجزاء معبرة عن كيانات سياسية مبعثرة. هذا من حيث القول إنه هو الركن الحامي والحفاظ لوحدة المجتمع فهو على النقيض من ذلك. أما من حيث حقيقته وارتباطه بعقيدة الناس فهو نظام دخيل عليهم لا يمت إلى عقيدة الناس بصلة، ولا هو منبثق عن أعرافهم ومفاهيمهم وأفكارهم. ولكنه نظام رأسمالي فرض عليهم، وليس لهم إلا الطاعة والالتزام بهذا النظام. وارتبطت مصالحهم به، ورعت شؤونهم بموجبه، وبه وبالرقعة من الأرض المقام عليها حدد للناس هويتهم وإقامتهم. فهم ملزمون به وملتزمون بأحكامه بغض النظر عن موافقته لما عندهم من أفكار،أو ما يعتقدونه من عقائد. ولذلك تجد الغالبية العظمى من الناس تشير بإصبع الاتهام إلى النظام القائم وتعتبره مصدر كل مفسدة وأساس كل بلوى. وتتمنى تغييره، بل تتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يغيره ويزيله عن أعناقهم، مع أنهم لا يملكون البديل، بل و لم يفكروا جدياً بالبديل حتى الداعون لذلك. ذلك لأنهم كما أسلفنا، ليس لديهم قاعدة فكرية ينطلقون منها، ويأخذون منها أفكارهم، ونظمهم وليس لديهم طريقة تفكير منتجة يسلكون بها السبل لمعرفة أسباب الفساد وتحديد الأهداف ووضع البديل. ولهذا نجد الكثير بل الكثير جداً من الحركات والأحزاب التي تسعى لتغيير النظام القائم ولكنها للآن لم تضع في برامجها أو مناهجها بديلاً لما تريد تغيره، وقد جرت في عالمنا الإسلامي انتفاضات أو انقلابات أو ثورات استهدفت تغيير النظم القائمة فيه، وقد وصل الكثير من هؤلاء الثوار والانقلابين إلى الحكم، ولكنهم لم يستطيعوا تغيير النظام لأنه ليس لديهم البديل. وإنه وإن جرى بعض التبديل فإنما كان لمعالجة مشكلة آنية، أو وضع شيء جديد مقتبس عن بعض المجتمعات، أو تنفيذاً لما ارتفع من شعارات. وبطل إحدى الانقلابات والذي صار رئيساً لدولة، كان يفاخر حين غير دستور الدولة التي حكمها، كان يفاخر بأن الدستور الذي اختاره للناس، وفرضه عليهم، هو مستخلص من دساتير واحدة وخمسين دولة.

هذه مقومات مجتمعنا الأساسية الثلاث، الأفكار والمشاعر والنظام وما آلت إليه حتى أصبح مجتمعنا مثل الماء لا لون له. ولا رائحة ولا طعم. هذه هي أمراضه الأساسية التي شلت عافيته، وأسقمت جسمه، وحطمت أضلاعه وليت الأمر وقف عند هذا الحد، حيث إن الأمراض الجانبية التي نشأت عن هذه الأمراض الأساسية لا تقل خطورة عنها.

الأمراض الجانبية

نعم، ليت الأمر وقف عند حد إخلال أو إتلاف العناصر الأساسية من مقومات المجتمع، ولكن الأمر تعداه إلى أمراض جانبية لا تقل خطورة عن الأمراض الأساسية، لأنه لا يمكن أن يصار إلى المعالجة الأساسية، إلا بزوال هذه الأمراض الجانبية، لأنها تشكل حاجزاً منيعاً يحول دون الوصول إلى جوهر المشكلة. والذي أدى إلى تفاقم هذه الأمراض عاملان. العامل الأول مخلفات العهد الهابط، أما العامل الثاني فهو زوال الدولة الإسلامية وهيمنة دول الغرب على عالمنا الإسلامي برمته، وحكمه حكماً مباشراً، أو غير مباشر، و لم يتوقف تأثير هذين العاملين و لم يقتصر على جانب واحد من حياتنا. بل كان له الأثر الأكبر بل الأثر كله على المقومات الأساسية لمجتمعنا. فبسبب هذين العاملين الأساسين سكت المسلمون على إزالة دولتهم وتمزيق مجتمعهم، وانتهاء وحدتهم. وبسبب هذين العاملين تسربت إلى المجتمع بعض الأفكار الفاسدة، وظهرت بعض مشاعر الوطنية والإقليمية والقومية. وبسبب هذين العاملين تمكن الغرب من إزالة دولة الإسلام وإبعاد الإسلام عن واقع الحياة. وبسبب هذين العاملين جعل الغرب كعبة المثقفين ومحط أنظارهم فضبعوا بثقافته وتبنوا عقيدته أو كادوا إلا من رحم ربي وبسبب هذين العاملين أمسى العالم الإسلامي خاضعاً لأنظمة الكفر ولعملائه الذين أقامهم على رقاب الناس ينفذون أوامره ويرعون مصالحه ويحقون أهدافه. ولذلك كان لا بد من الإحاطة بهذه الأمراض الجانبية إحاطة كاملة والعمل على إزالتها حتى نتمكن من الوصول إلى جوهر المشكلة في نفس الوقت الذي تبذل فيه الجهود في معالجة الأمراض الأساسية.

العامل الأول:– مخلفات العصر الهابط:– أثر العصر الهابط على الأفكار التي يقوم عليها المجتمع.

وصل المجتمع الإسلامي إلى الدرك الأسفل من الانحطاط حين قام أبناؤه بمساعدة الكفار على إزالة دولتهم، وتمزيق مجتمعهم في الحرب العالمية الأولى. وقد بدأ انحداره السريع بعد الغزو المغولي و لم تستطع الحركات المتعددة والتغييرات الكثيرة التي طرأت عليه من إنهاضه أو على الأقل وقف انحداره ذلك لأنها لم تدرك معنى النهضة و لم تعرف أثر الأفكار في حياة الناس بل زادت في الطين بلة حين فصلت الطاقة العربية عن الطاقة الإسلامية وقالت بغلق باب الاجتهاد فجمدت العقول وأبعد التفكير المبني على قاعدة ثابتة وساد الأمة بكاملها عقلية التقليد والاتباع.

وبهرت عيون الناس أضواء الثورة الصناعية في أوروبا، و لم تعتن الدولة أو القائمون على أمرها بالجانب الفكري، أو الثقافي في حياة الناس ظناً منها أن القوة العسكرية هي النهضة ومفتاح الرقي فصبت جل اهتمامها في الجانب العسكري، فما إن توقفت فتوحاتها في أواسط أوروبا حتى وجدت نفسها غرضاً يرمى وفريسة تطارد و لم تنتبه وهي في قوتها العسكرية إلى الأمراض الداخلية التي فتكت بها. ومن أبسط الصور على مدى الانحطاط الفكري وعقلية التقليد تلك الصورة التي

نأخذها عن خطباء المساجد وهم باعتبارهم القادة الفكريين في الأمة فقد كان خطباء المساجد في خطبة الجمعة التي تعتبر الموجه السياسي للرأي العام، كانت هذه الخطب تقرأ من كتاب ابن نباتة المتضمن خطباً بعدد أسابيع السنة وبحسب المناسبات ففيه خطب بمناسبة شهر رمضان، وفضائل الصوم، وفيه خطبة الجمعة اليتيمة في آخر رمضان وخطبة ليلة القدر وخطب أشهر الحج وعرفة وفضائلها، وعاشوراء والهجرة ومولد النبي والنصف من شعبان وهكذا على مدار السنة. فإذا كان هذا حال المفكرين في الأمة والموجهين لها، فكيف يكون حال الأمة الموجهة بهذا التوجيه؟ ولئن سألتهم عن شيء قالوا، ما ترك الأوائل مقالة لقائل.

وأما أثر العصر الهابط على المشاعر فلغياب الأفكار الحية المعالجة لمشاكلهم والمنبثقة عن عقيدتهم فقد ساد الأمة مشاعر متعددة متناقضة ومخالفة في كثير من الأحيان لعقيدتها من مثل تقديس الأضرحة ومقامات الأولياء والصالحين، والأئمة حين أضفوا عليهم من الصفات ما يفوق مكانة الأنبياء والمرسلين، حتى قالوا إن النبي لم يصل لمنزلته بجهده، بل هو مرسل من الله ولا فضل له فهو يوحى إليه أما هؤلاء فقد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بجهدهم وما قاموا به من رياضة وتقرب وأعمال (كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره) (يا عبدي اعبدني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون) إلى غير ذلك من الأقوال التي شدت الناس إلى التوسل بأضرحة هؤلاء الأئمة أو الأولياء أو تلامذتهم ومريديهم. كما انتشرت بعض المشاعر الصوفية المتأثرة بالفلسفة الهندية التي تدعوا إلى العزوف عن الدنيا وتعذيب الجسد لتسمو أرواحهم في السماء. وظهر في هذا العصر فئة المشايخ والدراويش حتى قالوا من لا شيخ له فالشيطان شيخه. ومن مثل هذه المشاعر الكثير حتى تبلد إحساس الناس وفقدوا شعورهم بالعزة بالإسلام والعيش به ومن أجله ومن أجل رفعته وقوة سلطانه أو على الأقل فقد الإحساس بوجوب التغير وانتشرت مشاعر القدرية الغيبية انتشاراً فظيعاً واعتبروا أن ما حصل لهم وما هم فيه هو قدرهم وعليهم الرضى بما قسم الله كما انتشرت فكرة انتظار المهدي الموكل إليه أمر التغيير فلا بد من أن تملأ الأرض فسقاً وجوراً حتى يسارع ظهوره كما بدأت فيه بعض مشاعر الوطنية أو القومية أو المذهبية أو الطائفية.

وأما أثر العصر الهابط على النظام أو على القائمين عليه.

فإن النظام لم يجر عليه أي تغيير يذكر عدة قرون ولو أنه كان بداية لتغيير بعض القواعد الأساسية فيه وإدخال بعض المفاهيم الغربية عنه وكان السبب في ذلك هو الضعف الشديد الذي طرأ على أذهان المسلمين في فهم الإسلام لإهمال شأن اللغة العربية التي هي لغة الإسلام واللغة التي لا يفهم الإسلام إلا بها. كما أدى غلق باب الاجتهاد إلى أخذ أحكام النظام نصوصاً جامدة قصرت عن متابعة مشاكل العصر ومعالجة النظام لها. مما جعل القائمون على النظام يشعرون أنهم بحاجة إلى بعض القواعد والقوانين لمعالجة مشاكل العصر. وقد ساعد في ذلك تلك الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام والقائلة "إن ما لا يخالف الإسلام فهو من الإسلام" مما أدى إلى إدخال العديد من القواعد والتشريعات من الفقه الروماني أو الفرنسي إلى أنظمة المسلمين بحجة أنها لا تخالف الإسلام فهي من الإسلام.

مع أن الإسلام هو ما جاء به محمد رسول الله ﷺ وحياً من عند الله. إما لفظاً ومعنى وهو القرآن وإما معنى عبر عنه الرسول بألفاظ منه أو بأفعال منه أو بسكوت عن عمل في معرض النطق. وما يمكن أن ينبثق عن تلك النصوص –قرآناً أو أحاديث– من نظم وما يستنبط منها من أحكام (هذا هو الإسلام) وليس هو ما لا يخالف الإسلام. فالعبرة في مصدر الشيء لا في موافقته أو مخالفته فجواز الملكية الفردية في النظام الرأسمالي لا يعني أنها من الإسلام فهي لا تخالفه لأنه يبيح التملك فحرية الملكية في النظام الرأسمالي حكم كفر ونتاج عقلي. وإباحة التملك في الإسلام حكم شرعي دليله النص الذي جاء به الوحي فالعبرة إذن في مصدر الشيء لا في منطوقه ولا في مدلوله ولا في النتيجة التي يوصل إليها ولا في موافقته أو مخالفته. هذا من حيث الأثر على النظام. أما من حيث أثره على القائمين على النظام. فإنه واضح من تصرفاتهم وتطبيقهم للنظام. فإنهم من هذا المجتمع نفسه بما فيه من أمراض وعلل فلم يكونوا أحسن حالاً من جمهرة الناس من حيث الفهم والوعي وإدراك المسؤولية حتى الأتقياء والمؤمنون منهم فقد اتجهوا إلى الناحية العسكرية والقوة المادية هذا في أحسن أحوالهم جاهلين ما يجب أن يكون وراء كل قوة عسكرية من نهضة فكرية ووعي على الواقع حتى تكون الأمة كلها وراء كل قوة عسكرية وبذلك عزلت الدولة والنظام عن المجتمع وأصبح النظام والقائمون عليه وأعوانهم في نظر الأمة شيئاً والأمة شيء آخر ثم ازدادت العزلة حتى تحولت إلى عداء وكراهية وبادلهم الحكام وأعوانهم هذه الرؤية حتى أمست حقيقة وأخذ كل منهما يتصرف مع صاحبه بناء على هذه النظرة فالحكام وأعوانهم أرادوا فرض احترامهم وتقديرهم وتنفيذ أوامرهم بقوة السلاح مستعملين كل وسائل الضغط والإرهاب فأساءوا في تطبيق كليات النظام وجزئياته وأرهقوا الأمة بما يشاءون من ضرائب فعاشت الأمة في ذعر من حكامها يقول الشخص لرفيقه أنج سعد فقد هلك سعيد. إن هذا الواقع الذي سار عليه القائمون على النظام سهل على من يريد هدم هذا الكيان وجعل الأمة تبحث عمن تلتف حوله لهدم هذا الكيان معتبرة ذلك سبيل النجاة وطريق الخلاص.ولذلك وبمساعدة أولئك النفر الذين تلقوا ثقافتهم في لندن وباريس والذين باعوا أنفسهم للشيطان طمعاً في حكم أو تحقيقاً لمنصب أو نوالاً لمصلحة استطاع الغرب أن يحرك الأمة بواسطة هؤلاء وأن يهدم الخلافة ويمزق الأمة ويحتل بلاد المسلمين مصوراً للناس أنه هو المخلص لهم من ظلم الأتراك وجبروتهم وقطع أوصال البلاد ليقيم فيها دولاً كرتونية هزيلة وينصب عليها عملاءه وصنائعه حكاماً ينفذون له ما يريد ويحققون له ما يبتغي.

الاستعمار

الاستعمار هو طريقة المبدأ الرأسمالي في الانتشار، وإيجاده في واقع الحياة وهو يعني بسط الهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية، وكما هو طريقة في نشر المبدأ وإيجاده في واقع الحياة فقد اتخذ كذلك وسيلة لنهب خيرات البلاد وسلب ثرواتها وامتصاص دماء أبنائها. هذه هي الطريقة الأساسية في نشر المبدأ الرأسمالي وهي نفس الطريقة التي سار عليها في نشر مبدئه في العالم الإسلامي. فجيش الجيوش وعقد الأحلاف وسخر العملاء والطامعين من أبناء الأمة وأعلنها حرباً أسموها الحرب العالمية الأولى. فقد أجمعت دول الكفر قاطبة باستثناء ألمانيا على هدم الخلافة وإزالة سلطان المسلمين. ولما تم له ذلك بسط هيمنته العسكرية على أقطار المسلمين فمزقها أولاً حتى تفقد قواها حين تدرك خطورة ما حصل وفظاعة ما أعانت عليه أو سكتت عنه ثم عمد إلى بسط هيمنته السياسية فأقام عملاءه وأعوانه حكاماً على رقاب المسلمين يأتمرون بأمره وينفذون ما يشاء من سياسة. ووضع يده على مقدرات البلاد وخيراتها وفرض النظام الاقتصادي الذي يريد ووقع هؤلاء العملاء معه الاتفاقيات الاقتصادية التي تمكنه من الحصول على الثروة مثل اتفاقيات النفط المزرية. وسار في بسط هيمنته الفكرية والثقافية وكلف نواطيره بتنفيذ ما يريد حتى يتم له بناء المجتمع وترسيخ المبدأ فيه على عين بصيرة بالشكل الذي يريد والقدر الذي يريد.

ولما كانت الثقافة هي صاحبة الأثر الأكبر على الفكر الإنساني، والذي يؤثر على مجرى الحياة عمد إلى فرض ثقافته على الناس فوضع مناهج التعليم والثقافة على أساس فلسفته -فصل الدين عن الحياة- والتي هي وجهة نظره في الحياة. وللإسراع في تركيزها أو سرعة انتشارها قام بإنشاء المدارس والمعاهد العلمية في كل مدينة أو قرية. ساعده في ذلك خلو معظم المدن والقرى من المدارس. نتيجة لسوء تصرف القائمين على رعاية شؤون المجتمع في العصر الهابط مما جعل الناس يرتاحون بعض الشيء لمثل هذا العمل وغاب عنهم ما يخفي وراءه.

وقد فرض على هذه المدارس والمعاهد مناهج أعدها هو، وألزم المدارس والمعاهد بها و لم يسمح بجزئية واحدة أن تخرج عما وضع من مناهج وفرض من برامج. وبنظرة بسيطة إلى ما وضع من مناهج ثقافية نرى مثلاً مادة الدين؛ فالاستعمار لم يمنع تدريس الدين الإسلامي بل على العكس جعله مادة أساسية في جميع المدارس ولكن بالكيفية التي يريد فالدين لا دخل له بالسياسة وشؤون الحياة وإنما هو شأن من شؤون الآخرة وعلاقة العباد بربهم. فالمنهج يقتصر على العقائد والعبادات والأخلاق. ولا يجوز أن يتدخل هذا المنهج في نظام الحكم أو النظام الاقتصادي أو الواقع السياسي، فالدين مفصول عن السياسة مبعد عن الدولة (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) وتدخله في الحكم والسياسة يثير الفتن والحروب! ويجلب المصائب والويلات! فأوروبا عانت من تدخل الدين بالسياسة وجرها إلى حروب دامت مئات السنين فلم تنهض

ولم ترتق إلا بعد أن أبعدت الدين عن السياسة والدولة. هذا ما يجب أن يسير عليه منهج مادة الدين وعلى القائمين في وضع التفصيلات للمنهج أن يلتزموا هذه القاعدة. هذا ما فرضه على الناس.

أما مادة التاريخ، فالقاعدة الأساسية فيها جعل تاريخ أوروبا هو المثل الذي يحتذى وشخصية الغرب هي المثل الأعلى الذي يجب أن تقلد ولكم في الغرب أسوة حسنة - وتشير الإصبع إلى واقع تلك البلاد الراقية الناهضة. فالقاعدة الأساسية في مادة التاريخ نقطتان الأولى: الصورة المشرقة لأوروبا ونهضتها وتاريخها وشخصيات رجالها ومفكريها. وأما الثانية فتاريخ الأمة الإسلامية: كما كتبه المستشرقين أمثال فيليب حتي أو غيره من المستشرقين فما تركوا فتنة حدثت أو خلافاً وقع أو صراعاً على حكم إلا أبرزوه في قالب جعل الشباب المسلم يخجل من تاريخه ويتصور معركة الجمل ومعركة صفين ومعركة مرج دابق وغيرها وتنافس الخلفاء واغتيال عثمان واغتيال عمر واغتيال علي وما إلى ذلك من أمور صورت بقالب جعل المسلم يأنف حتى من سماعها، وأصبح لا يرى من تاريخه إلا تلك الصورة القاتمة التي وضعوها أمامه.

وأما مادة اللغة العربية فقد غلفوها بالقالب القومي بحيث يتأتى لهم نشر المشاعر القومية والاعتزاز بالعرب والعروبة والتغني بأمجادها وألفت الكتب ودبجت المقالات ونظمت الأشعار في هذا المضمار حتى باتوا لجهلهم يرون أن للعرب والعروبة فضلاً على الإسلام فلولا ذلك ما انتشر الإسلام ولا وجد في الحياة.

هذه بعض المواد الأساسية في المنهاج الثقافي وهي المواد التي تؤثر في تكييف عقلية الفرد وبناء شخصيته زد على ذلك من عينوهم لتنفيذ هذه المواد والإشراف عليها وتدريسها مما جعل الطلاب يكرهون الدين لشخصية المدرس وتصرفاته، وطلاب اللغة العربية خرجوا بل أنهوا مناهجهم فتخرجوا أعاجم فجمعوا بين الأمرين:فساد المنهج وفساد القائمين عليه. إلى غير ذلك مما أدى إلى النتائج التالية: وهي ما نعني بأثر الاحتلال الغربي على أفكار المجتمع والرأي العام فيه:

أ- وجود جمهرة من المثقفين بثقافته المؤمنين بعقيدته العاملين بحسب وجهة نظره وفلسفته.

ب- استبعاد عودة الإسلام لواقع الحياة وإعادة سلطان المسلمين واعتبار الدعوة لذلك ضرباً من الخيال أو نوعاً من الجنون واعتبار الدعوة إلى الإسلام رجعية وتخلفاً.

ج- تركيز الفكر القومي أو الإقليمي ونشر الحقد والبغضاء بين أبناء الأمة الواحدة.

د- تسليط الأضواء على الديمقراطية وجعلها الهدف المنشود والغاية التي يعمل لتحقيقها.

هـ- نشر أفكار الحرية والحريات العامة —حرية عدالة مساواة.

و- انتشار أفكار الاشتراكية بأنواعها وما أضيفت إليها من معان وتفسيرات.

ز- وإرضاء للمسلمين وتضليلاً لهم ركزوا وجهة نظرهم في فهم المجتمع على أنه مكون من أفراد فانتشرت بين المسلمين الدعوة إلى الرجوع إلى الله بإصلاح الفرد نفسه، (أصلح الفرد يصلح المجتمع)!. والتقرب إلى الله بالعبادة والطاعة وبالأخلاق الحميدة وأقيمت على هذا الأساس العديد من الجمعيات الخيرية الدينية والأخلاقية وغير ذلك.

ح- تحريم العمل السياسي على المسلم، باعتبار السياسة دجلاً ونفاقاً والإسلام استقامة ووضوح فلا يلتقي الإسلام بالسياسة. وأبعدوا عن أذهان المسلمين أن السياسة هي رعاية شؤون الناس داخلياً وخارجياً.

ط- الاعتماد على الأجنبي في الوصول إلى الأهداف وتحقيق النتائج.

هذا بالإضافة إلى انتشار الأفكار الانهزامية، والآراء المنحطة من مثل قولهم تضليلاً:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1] اللامبالاة في الحياة العامة.

- (اليد التي لا تقدر عليها بوسها "أي قبلها" وادع عليها بالكسر) مسح جوخ ونفاق!.

- (الشهر الذي ليس لك فيه أجر لا تعد أيامه) اللامبالاة في الحياة العامة.

- (الكف لا يلاطم مخرز) انهزام وجبن.

- (لا يحل للمسلم أن يذل نفسه ومجابهة الحاكم إذلال) فهذا حرام - تحريم العمل السياسي.

- (أقبل الكلب من فمه حتى آخذ حاجتي منه) نفاق.

- (الرضا بالأمر الواقع إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون) واقعية خانعة.

- (خذ وطالب) حلول جزئية.

- قاعدة (الحل الأوسط) أسلوب الغرب في حل مشاكله بناء على عقيدته.

[1] سورة المائدة: ١٠٥.

إلى غير ذلك من الآراء والأفكار التي تسمم بها المجتمع وتشربت بها عقول الناس حتى أخذت مقاييس لأفعالهم وقواعد لتفكيرهم وصار على مريدي النهضة أن يعملوا على إزالة هذه الآثار وغسل هذه الأدمغة وإبعاد هذه الأدران حتى يعود للأمة نقاؤها ويتم بناء عقليتها على أسس مبدئية صحيحة.

أما أثر الاحتلال على مشاعر الجماعة –أي المجتمع–

لقد استطاع أن يغرس بذرة القومية والإقليمية والعنصرية والقبلية والعشائرية والمذهبية والطائفية فوجد تربة خصبة سرعان ما نمت وترعرعت فاشتعلت النفوس بالعداوة والبغضاء. فكانت الأداة التي استطاع من خلالها الهيمنة على الجميع فكان يغذي كافة الأطراف انطلاقاً من قاعدته المشهورة (فرق تسد). وأصبحت الأمة أمماً شتى والشعب الواحد شعوباً والمجتمع الواحد مجتمعات صاغها على هواه وصارت أحاسيس الناس ومشاعرهم لا تثور إلا ضمن الخط الذي رسمه لها. هذا من جهة ومن جهة ثانية حين جعل شخصيته –أي شخصية المستعمر– هي الشخصية المثالية في نفوس الناس وبلاده وتاريخها هي الصورة التي يتطلع إليها الناس بإكبار وإجلال حتى بلغ الحال بالمثقفين بثقافته المعتقدين بعقيدته السائرين في ركابه والمضبوعين بأفكاره أصبح هؤلاء أغراباً في مجتمعهم يزدرون أهلهم ويحتقرون أمتهم ويخجلون من تاريخهم. وعند هذه العبارة أذكر قصة حصلت مع أحد الوفود –المثقفين جداً– الذين زاروا الصين فاستقبلتهم استقبالاً حاراً ورحبوا بهم ونزلوا في ضيافتهم بالحفاوة والتكريم. وزيادة في إكرامهم تخطوا معهم حدود الرسميات فآنسوهم في أمسياتهم. وفي إحدى الأمسيات كان وزير خارجية الصين يجلس معهم مرحباً ومجاملاً فحدثهم عن البطل الأسطوري الذي لم يتجاوز سنه العشرين ذلك القائد المسلم الذي اجتاز الهند فاتحاً حتى وصل إلى حدود الصين وذكر ما جرى من حوار بين ملك الصين والقائد الشاب وحين قال القائد الشاب محمد بن القاسم إن أميرنا أقسم أن يطأ تراب الصين بقدميه قال له ملك الصين تحمل له معك تحياتي وما خف حمله وغلا ثمنه هدايا مع كيس من تراب ينثره تحت قدميه فيدوس عليه ليبر بقسمه، هذا ما رواه المسؤول الصيني الكبير إلا أن الوفد المثقف المحترم وارى وجهه خجلاً من هذه القصة. وبدأ يهاجم همجية محمد بن القاسم وعمله البربري الاستعماري ولماذا يهاجم الصين وما له وللصين؟ ولم خرج العرب من الجزيرة؟! إنها عقلية الاستعمار وعنجهيته وأسلوبه. هذا ما تفوه به الوفد المثقف المحترم فغضب المسؤول الصيني غضباً شديداً وانتفض قائماً. وقال مخاطباً الوفد ببغض وازدراء مشيراً إلى رئيس الوفد المحترم الذي كان يستنكر أعمال محمد بن القاسم وقال له اسمع يا هذا: إن أمة تخجل من تاريخها لا تستحق الحياة. وتركهم هو وجماعته وخرج وأخرجوا في اليوم التالي من الصين هذا ما رواه أحد الحضور الذي كان بمنزلة سفير ممثلاً لبلاده هناك.

هذه هي المشاعر التي تركها في نفوس الناس.

وأما أثر الاحتلال على النظام – فالنظام يتمثل بالدستور والقوانين والهيئة التنفيذية القائمة على تطبيقه على الناس. أي الحاكم أما الحاكم فان قبعة الكافر لم تختف من الشارع المسلم إلا بعد أن اطمأن لوجود الناطور الذي يحمي له مزرعته أي إن الكافر لم يدع الحكم لعملائه من أبناء المسلمين إلا بعد أن تأكد أنهم خير من يحفظ له وجوده ويؤمن له مصالحه وينفذ له سياسته. وأنهم خير سائس يروض الناس ويكيفهم حسب وجهة نظر الغرب وثقافتهم وخير من ينقل المجتمع برمته إلى المجتمع الرأسمالي نظماً وأفكاراً ومشاعر.

نقل العقائد والشرائع والقرى والناس نقل كتائب بالساح

وقد جعل الأساس للعمل السياسي في البلد هو الصراع على الحكم،بين مجموعة من عملائه لا يتغير الحكم،بل لتغيير الحاكم واستبداله. وخير دليل على ذلك ما شهدناه في السنوات الماضية من صراعات سياسية، وثورات، وانقلابات لم تخرج واحدة منها عن محاولة تغير الحاكم، فنجح الكثير منها في تغيير الحاكم وبقي النظام كما هو بل إن النظم ومعظم القوانين التي سنها منذ الاحتلال حتى الآن لم يتغير منها شيء إلا في بعض الجزئيات التي لم تخرج عن القواعد الأساسية، والخط العريض، بالرغم من تغيير الحكام عدة مرات. وما زلنا نرى ما في المجتمع من تكتلات وأحزاب سياسية تخوض في صراعات سياسية عنيفة تصل في كثير من الأحيان إلى الصراع الدموي ونرى ما وضعت من مناهج وثقافة إن وجدت فلا تخرج واحدة منها من تزيين برامجها أو مناهجها بكلمات الديمقراطية والحرية والاشتراكية والجمهورية والتقدمية وغير ذلك من الألفاظ التي يتزلفون بها إلى آلهتهم، ويتقربون بها ظناً منهم إلى قلوب الناس. إن أي نظام يفرض على الناس فرضاً ومخالفاً لعقيدتهم أو مناقضاً لأفكارهم ومشاعرهم من البديهي أن يجابه بسخط الناس وكراهيتهم ومقاومتهم إن استطاعوا ولذلك فلا بد من استعمال سياسة الجزرة والعصا. فكانت سياسة القمع والاضطهاد وكانت الأحكام العسكرية وحكم المخابرات وتأمين المصالح والحصول على الوكالات التجارية والمنح والقروض وإجازات الاستيراد. فالعصاة بيد والجزرة باليد الأخرى ومما زاد الطين بلة، تصارع دول الكفر على البلاد وتنافسها على بسط سلطانها واتساع نفوذها وتحقيق مصالحها. فأمريكا بعد الحرب العالمية الثانية قررت الخروج من عزلتها بعد أن تحملت القسط الأكبر من أعباء الحربين ورأت أنها هي التي حققت النصر فيها لذلك اعتبرت نفسها الوريث الشرعي للاستعمار البريطاني والفرنسي بل والغربي بكامله الذي كان يهيمن على العالم الإسلامي قبل الحرب. إلا أن بريطانية وفرنسة قررتا التشبث بوجودهما والاحتفاظ ببقاء مصالحهما ونفوذهما. ومن هنا بدأ الصراع بينهم ولكن بشكل خفي فأمريكا تستعمل ثقلها الدولي وضغوطها المالية وعملاءها الجدد وبريطانية وفرنسة تستعملان عملاءهما من الحكام وأعوانهما. فيجري الصراع الدموي وأدواته أبناء الأمة ووقوده ثرواتها وتكتوي الأمة بنار الفتن والحروب الداخلية. تنفيذاً لرغبة الكفر والكفار وتحت ستار الحرية والتحرر.

هذا ما صارت إليه حال مجتمعنا وهكذا أمست أمتنا وهذه هي التركة الضخمة التي يجب على العاملين لإنهاض الأمة التعامل معها وهذا ما نعنيه بفهم الواقع والتفقه فيه قبل محاولة إصلاحه والحكم عليه فلا يكفي أن يكون المبدأ واضحاً

في أذهان من يريدون إنهاض الأمة على أساسه ويقودونها بموجبه ويريدون نقلها إلى المنزلة اللائقة بها بل لابد لهم أن يدركوا ما عليه الناس وما يعانون من أمراض أساسية أو جانبية. فكيف إن كانوا لا يدركون من المبدأ إلا اسمه ولا يفهمون من القرآن إلا رسمه والتغني فيه ولا يعرفون عن أهدافهم التي يسعون إليها إلا القول أنهم يريدون دولة إسلامية ويريدون عزة المسلمين ولكن كيف؟ قل علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو.

السير في طريق النهضة

قلنا: إن النهضة لا يمكن أن توجد إلا بعد معرفة الإنسان معنى وجوده في الحياة، حتى يستطيع أن يكون مفاهيم صحيحة عنها أي حتى يعرف كيف ينظم علاقاته ويحدد سلوكه ويشبع جوعاته التي لابد وأن تكون مع غيره من الناس أو من الكائنات الحية الأخرى أو من الأشياء المادية التي يحتاجها فهو إنسان يعيش مع غيره من البشر ومع أمم أخرى من المخلوقات الأخرى على هذه الأرض في هذا الكون الشاسع فكيف يتعامل مع الناس أو مع الكائنات الحية الأخرى أو مع الأشياء لقضاء حاجاته أو إشباع رغباته إن لم يكن له وجهة نظر في هذه الحياة التي يحياها ومعرفة لهذه الحياة وموقعه منها.

ولهذا كان لا بد أن يسبق إجابته عن معنى وجوده في الحياة معرفة حقيقية لهذه الأشياء جميعها. أي أن تكون له فكرة أساسية عن الإنسان والكائنات الحية والكون، أي لا بد أن تكون له فكرة أساسية شاملة عن هذه الأشياء جميعها. تكون هذه الفكرة الأساسية قاعدة لتفكيره، ومنطلقاً لكل مفهوم عن هذه الحياة ومنظماً لكل سلوك أو علاقة. هذا إن أراد أن ينهض حقاً ويرتقي إلى المكانة التي كرمه الله بها. أي لمستوى إنسان فيرتفع بما حباه الله من عقل عن مكونات جسمه الحياتية أي التي شارك فيها غيره من الموجودات في التركيب العنصري أو المادي. أما إن أراد أن يخلد إلى الأرض ويلتصق بها ويعيش كما تعيش الكائنات الحية الأخرى كالأنعام مثلاً – فاليصم أذنيه عما يسمع وليغمض أذنيه عما يرى وليتخل عن النعمة التي اختصه الله تعالى بها أي القلب لينطبق عليه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1] أو قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[2].

ولهذا: كان على مريدي النهضة أن تكون لهم فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة وعما قبل الحياة الدنيا وعن علاقتها جميعها بما بعد الحياة الدنيا أي أن تكون لهم عقيدة عقلية تكون أساساً لتفكيرهم وتنبثق عنها كافة أنظمتهم وقوانينهم وتحدد لهم وجهة نظرهم في الحياة – أي تحدد لهم الأساس الذي يتصرفون بموجبه مع الناس والأشياء. هذا من جهة ومن جهة أخرى يجب أن تشمل هذه القاعدة الفكرية على الأسس التي تبين كيفية تنفيذ هذه النظم والقوانين، كما يجب أن تحتوي هذه القاعدة الفكرية على الطريقة التي تبين كيفية إيجادها في واقع الحياة، وإيصالها للناس كافة وبعبارة

[1] سورة الأعراف: ١٧٩.

[2] سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٦.

مختصرة أن يكون لهم مبدأ ينقادون له ويقودونه ويقودون به غيرهم من البشر وهذا يقتضي أن يكونوا هم بمجموعهم كأنهم المبدأ الحي الذي يسير في الناس فهم وثقافتهم وسلوكهم المرآة التي تنطبع عليها صورة المبدأ الذي يحملونه والفكرة التي يدعون لها. كما أن عليهم –وعملهم هو إنهاض الأمة ونقل المجتمع إلى الحالة الأفضل– أن يكونوا على معرفة بالواقع الذي يعملون فيه، معرفة تمكنهم من وضع العلاج المناسب، أو وصف العلاج المناسب لكل مسألة أو حادثة أو واقع من الأمراض الأساسية أو الجانبية التي تنخر جسم الأمة وتمزق المجتمع وتسمم أجواءه ولا يكفي أن تكون العقيدة وفهم أفكارها وأحكامها كل ما يعرفون أو يدعون إليه ولتفصيل ذلك نقول إن عليهم ما يلي:–

من المعروف أن حمل الدعوة الإسلامية فرض على كل مسلم فهي الرسالة المكلف بتبليغها ونشرها بين الناس «**لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت**». أو كما قال وفي رواية «**خير لك مما طلعت عليه الشمس**»[1]. وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2]. إلا أن المسألة ليست مسألة حمل دعوة وحسب بل هي مسألة حمل دعوة من أجل غاية معينة أي بناء أمة وإنهاضها على أساس معين وإقامة دولة تجعل الإسلام موجوداً في واقع الحياة، وبعبارة أخرى هي مسألة توعية للمسلمين لتنفيذ حكم شرعي معطل، وهو مبايعة الخليفة «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية**»[3] أي أن يكون حمل الدعوة من أجل غاية معينة وتحقيق هذه الغاية لا يمكن أن يأتي بالعمل الفردي والوعظ والإرشاد. فلا بد أن يكون هذا العمل في كتلة واستبعاد العمل الفردي من أذهان الناس. وهذا معنى وجوده في هذه الحياة أي أنه يعيش من أجل ذلك من أجل أداء هذه الرسالة وتبليغها للناس وإيجادها في واقع الحياة.

فهم المبدأ بفكرته وطريقته وأعني بذلك أخذ العقيدة أخذاً عقلياً يقينياً ومبنياً على العقل وفهم ما انبثق عن العقيدة من أحكام ومعالجات ومعرفة الوسائل والأساليب التي تؤدي إلى نشرها وتبليغها للناس. كما أعني فهم ما جاءت به هذه العقيدة وما انبثق عنها من أحكام تبين كيفية المحافظة على المبدأ نفسه وكيفية تنفيذ ما جاءت به من معالجات وأحكام. ومعرفة الكيفية المحددة لنشر المبدأ نفسه وهيمنته ونشره للناس كافة. أي بسط سلطان الإسلام –المبدأ– على الناس حتى يؤمنوا به.

معرفة الكيفية –الطريقة– التي يتمكن من إيجاد المبدأ في الحياة. من نقطة ابتداء الفكرة عند شخص أو أشخاص مروراً بإيجاد تكتل يقوم على الفكرة وبناء هذا التكتل بناء فكرياً – أي تثقيف حملة هذا المبدأ وأعضاء هذا التكتل بثقافة محددة موحدة بحيث يصبح كل فرد فيه هو المبدأ نفسه هذا مع الاحتكاك بالناس ودعوتهم إليه وأخذ ثقتهم بالمبدأ وبحملة

---

[1] رواه الطبراني عن ابن رافع.

[2] سورة النحل: ١٢٥.

[3] رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر ورواه الطبراني (بمجمع الزوائد ج٥ ص٢١٨) عن معاوية. وفي رواية «**من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية**».

المبدأ -التفاعل- ووصولاً إلى إمكانية وضع هذه الأحكام والمعالجات موضع التنفيذ أي الحكم وبذلك يوجد المبدأ في واقع الحياة تماماً كما فعل رسول الله ﷺ وهذا يقتضي التفريق بين كيفية إيصال المبدأ إلى الحياة أي إلى الحكم وبين كيفية تنفيذ أحكام المبدأ ونشره أي مباشرة الحكم بكافة أحكامه من محافظة على المبدأ أو تنفيذ للمعالجات ورعاية شؤون الناس إلى حمل هذا المبدأ للعالم بالجهاد.

وقد سار الرسول ﷺ بالكيفية الأولى ابتداء من نزول الوحي إلى الهجرة وإقامة الدولة أي إلى إيجاد هذا المبدأ في واقع الحياة. ومن ثم قام بالجزء الثاني أي الجانب العملي من الطريقة فباشر تنفيذ أحكام هذا المبدأ فبنى بذلك أرقى مجتمع عرفه التاريخ وأقام نهضة لم يشهد العالم لها مثيلاً. وبذلك يجب أن تكون طريقة الرسول بجزأيها مع وضوح التفريق بينهما لوضع كل جزء في مكانه يجب أن تكون هي الطريقة التي تحمل بها الدعوة الآن.

وبالنظر في طريقة الرسول ﷺ نجد أنه أوجد تكتلاً سياسياً يقوم على المبدأ أي على عقيدة واحدة وفكرة واحدة وقد كان ذلك واضحاً جلياً في كلمة لسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ حيث يقول "**لا إسلام بلا جماعة ولا جماعة بلا إمارة ولا إمارة بلا طاعة**" وهذا نفي للعمل الفردي ومنافاة للإسلام حين العمل لتحقيق هدف معين فكيف إذا كان الهدف قد حدده المبدأ وطبيعة العمل تقتضي وجود جماعة بإمارة وليس المقصود أية جماعة بأية إمارة بل المقصود جماعة سياسية وإمارة سياسية كذلك أما كونها سياسية فذلك للأمور التالية:

أ- إن الغاية التي وجدت من أجلها هذه الكتلة والفرض الذي أوجب وجودها هو تغيير المجتمع ونقله إلى الوضع الأفضل -أي إنهاض المجتمع- ولما كان المجتمع مكوناً من جماعة من الناس لهم أعراف عامة ونظام ينظم شؤونهم إلا أن هذه الأعراف وهذا النظام دون المستوى اللائق والمراد هو رفعة شأن هؤلاء الناس فلا بد من رفعة شأن أعرافهم -وأفكارهم ومشاعرهم وتغيير النظام الفاسد الذي ينتظمهم- ووضع النظام الذي يصلح شأنهم ويتفق مع ما يحملونه من عقيدة وأفكار أي تغيير هذا الكيان السياسي الفاسد وما يقوم عليه من أفكار ومشاعر ونظام ووضع كيان سياسي صالح يحل محله. ولذلك لابد أن تكون هذه الكتلة التي تعمل للنهضة كياناً فكرياً سياسياً حتى تستطيع أن تحقق غايتها وتصل إلى هدفها. لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ب- أما الأعمال التي على الكتلة القيام بها في عملية التغيير هذه -النهضة- فهي جميعها أعمالاً سياسية فعملية تغيير الأعراف والتقاليد والأفكار التي تتحكم في علاقات الناس تتطلب تثقيف الناس ثقافة سياسية تتناول جميع الأفكار والأحكام التي تريد أن تبني المجتمع على أساسها أي تتناول المسير للعلاقات الدائمة التي جعلت جماعة الناس مجتمعاً متميزاً سواء أكانت أفكار حكم أو اقتصاد أو اجتماع أو أمن أو تعليم أو غير ذلك انطلاقاً من قاعدتها الفكرية -العقيدة- وهذا يعني جعل العقيدة التي تعتقدها الأمة عقيدة سياسية تتناول كافة شؤونهم الحياتية وعلاقاتهم الداخلية وعلاقاتهم الخارجية.

ج- إن الكتلة وهي تعمل لإنهاض الأمة إنما تتعرض لفساد العلاقات والنظم والقوانين التي تنتظم هذه العلاقات وهذا يعني التعرض للهيئة التنفيذية القائمة على تنفيذ هذه النظم والقوانين وتصدي الدولة لهذه الكتلة وأعضائها أمر حتمي وهذا هو الكفاح السياسي.

د- إن الكتلة وهي تعمل لإنهاض الأمة إنما تتعرض لما في المجتمع من أفكار مخالفة لها أولما في المجتمع من عادات وتقاليد أو مفاهيم أو كتل وأحزاب مخالفة لما هي عليه وهذا يعني الصراع الفكري بين الكتلة وغيرها من الناس من حملة مثل هذه الأفكار المغلوطة والآراء الفاسدة. وهذا كذلك عمل سياسي.

هـ- قوله ﷺ: «**من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين ليس منهم**»[1]، أو قوله عليه الصلاة والسلام: «**من رأى سلطان جائراً مستحلاً لحرمات الله ناكثاً لعهود الله حاكماً في عباد الله بغير ما أنزل الله ولم يغير عليه بقول أو فعل كان على الله أن يدخله مدخله**»[2]، وعشرات الأحاديث التي توجب على المسلم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا أيضاً عمل سياسي. أو قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3]، وعلى رأس الواجب إن أول من تأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر هم ولاة الأمور أي الحكام. وهذا كذلك قمة العمل السياسي.

هذه بعض موجبات أن تكون الكتلة العاملة لإنهاض المجتمع والأمة كتلة سياسية. وجميع أعمالها وأفكارها. أعمالاً وأفكاراً سياسية.

أن تقوم هذه الكتلة بتحديد فكرتها وأهدافها تحديداً يجلو عنها كل غموض ويزيل عنها كل إبهام بالإضافة إلى حرصها على صفاء فكرتها ونقائها وذلك بربط كل فكر أو حكم أو رأي لها بدليل من الكتاب أو السنة أو مما أرشدا إليه -الكتاب والسنة- من أدلة. بحيث تبدو للعيان أنها مستنبطة مما جاء به الوحي كما تحرص على نقائها بإبعاد كل فكر أو حكم أو رأي ليس منهما -الكتاب والسنة- فتزيل ما ألحق بها في العصر الهابط أو غيره من أحكام وآراء وأفكار وقواعد وعقائد لا تمت إليها بصلة. أو بصلة واهية هذا من حيث الصفاء والنقاء. وأما من حيث تحديد أهدافها وأفكارها وأحكامها وآرائها فلا بد لها أن تحدد كيفية تسيير أعمالها بموجبها أي أن تتخذ لها قاعدة عملية ثابتة مثل (أن يسبق كل عمل فكر وأن يكون من أجل غاية معينة وفي جو إيماني)، أي فكر أولاً، يتبعه عمل من أجل غاية، في جو إيماني وهذا يعني أن يكون ما تتبناه من أفكار، أفكاراً عملية بعيدة عن الخيال والتنظير فالفكر مجرداً عن العمل خيال وتنظير وفلسفة لا جدوى منها وقد امتلأت خزائن المسلمين من مثل هذه الكتب فالمكتبة الإسلامية هي أغنى مكتبة على وجه الأرض. لذلك

[1] رواه الحاكم عن ابن مسعود ورواه البيهقي في شعب الإمام ورواه الطبراني وأبو نعيم.
[2] رواه الطبراني في التاريخ وابن الأثير في الكامل وغيرهما عن الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما.
[3] سورة آل عمران: ١٠٤.

لا بد أن تكون أفكارها أفكاراً عملية وتؤخذ هذه الأفكار للعمل بها إلا أن اقتران الفكر بالعمل دون تحديد غاية أو هدف من العمل هو دوران في حلقة مفرغة وقد ابتليت الأمة بمثل هذا الأمر. وهناك جمهرة من الوعاظ والمرشدين الذين يصرخون في الأمة والناس أن اتقوا الله وعودوا إلى ربكم و لم يغيروا من واقع الأمة شيئاً لأنهم يدعون بلا هدف. لذلك لا بد من تحديد الهدف من الفكر والعمل على أن يكون الهدف أو الغاية قد حددته العقيدة نفسها وأن يكون كل ذلك أي الفكر والعمل والهدف المنشود أن تكون جميعها في جو إيماني ذلك لأن صعوبة السير ووعورة الطريق وعنف المقاومة قد تضعف الاندفاع في الكتلة ولذلك لابد من اللجوء إلى الناصر المعين وهو الله سبحانه وتعالى لكي يأخذ بيدها ويثبت أقدامها وهذا لا يتأتى إلا بربط كل فكرة يقوم عليها عمل بأمر الله سبحانه – أي اقتران كل حكم بدليله وبالعقيدة سيراً على نهج القرآن في آيات الأحكام حيث تنتهي الآية بربط الأمر بالله تعالى وبالصفة التي يقتضيها الحكم. مثل قوله تعالى: ﴿**السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[1]، وهذا يعني أن توضع الفكرة والعمل والهدف وكيفية الوصول إليه والقاعدة التي تنطلق منها كمخطط هندسي قاعدته العقيدة ويحدد شكل البناء وكيفية إقامته تماماً كما يفعل المعمار. فهو حين يتخذ قراره ببناء بناية ما أي حين يحدد هدفه يضع المخطط الهندسي –الخريطة– الذي يبين له طبيعة الأرض التي يريد أن ينشئ عليها البناية ثم يبين شكل البناء الداخلي والخارجي وما فيه من أدوار وما يحتوي من أجنحة وما يحتاج من مواد وتكاليف.

وحين تحدد العقيدة وجوب إيجادها في واقع الحياة، وتلتزم الكتلة هذا الهدف. فلا بد لها، أي الكتلة من الوعي على هذا الهدف وعياً كاملاً، لتنقل إلى الأمة هذا الوعي وهذا التطور، كي ترتفع الأمة بمجموعها إليه وتعمل على تحقيقه. لا أن تتجاهل وضوحه، أو أن تبقيه في صدور قادتها بل لابد من وضع ذلك الهدف بكلياته وجزئيا ته تحت أنظار الأمة حتى يتسنى لجميع العاملين والمؤيدين والناس أجمعين، الذين نريد نقلهم إليه للاطلاع عليه ومعرفته ولا يجوز فيه التعتيم أو التعميم. فمثلاً حين يكون الهدف هو بناء الأمة واستئناف الحياة الإسلامية، ولا يتأتى ذلك مطلقاً إلا بإقامة دولة إسلامية. فإن هذا قول عام فلا يكفي فلا بد أن تعي الكتلة ومعها الأمة على معنى بناء الأمة ونهضتها وذلك بتوضيح هذا المعنى وشرحه للناس ويتلخص ذلك المعنى بأن يكون للأمة قاعدة فكرية وطريقة تفكير منتجة وحين نقول: استئناف الحياة الإسلامية، أن تبين هذا القول وما تعنيه به، أن تعيد ثانية تحكيم الإسلام في علاقات الناس الداخلية والخارجية وأن القول باستئناف الحياة الإسلامية أي العودة إلى تطبيق الإسلام كما طبق منذ عهد الرسول ﷺ إلى آخر عهد الخلافة، فالعملية هي استئناف حياة توقفت، وليست مسألة جديدة، يراد إيجادها وإنما هي مسألة استئناف لحياة مضت. وحين تقول ذلك عليها أن تبين أن ذلك لا يتأتى إلا بإقامة دولة إسلامية، ومبايعة الخليفة، فلا بدلها من توضيح هذا الهدف، والذي يترتب على وجوده وجود الإسلام في واقع الحياة ونهضة الأمة، نعم لابد من وضوحه في ذهن الكتلة وتصورها، كما لا بد من وضوحه في ذهن الأمة وتصورها، فلابد لها إذن من تحديد معنى الدولة الإسلامية، وما القواعد التي تقوم عليها، وما هي

[1] سورة المائدة: ٣٨.

أركانها، وما هي أجهزتها، وما هي النظم التي تنتظمها، أي لابد لها من رسم المخطط الهندسي كاملاً بحيث لا يبقى إلا وضع الأشخاص في مراكزهم، أي لابد أن يكون دستورها بكلياته وجزئياته واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار، أما أن تدعو لأمر لا تعرفه. أو تطلب من الأمة انتقالها إلى واقع تجهله، وتطلب منها الثقة والتأييد، فهذا ضرب من الخيال وزيادة في الجهل، ومخالف لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِّ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِّ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ومن المعروف بداهة أن فاقد الشيء لا يعطيه، هذه نقطة. ومن جهة أخرى فمن المعروف أن يكون في المسألة الواحدة أكثر من رأى في معظم الأحيان، قد تصل حد التناقض، في الأصول والقواعد، أو في الفروع والجزئيات، ولذلك يقتضي أن تختار هذه الكتلة ما يلزمها من أحكام وآراء وأفكار تتبناها وتسير بموجبها، وتعمل لتنفيذها، حتى لا تجمع بين النقيضين. ومن المؤكد أن يؤدي عدم تحديد الفكرة إلى الاختلاف والتناقض في الرأي بين أعضائها وبالتالي قد يؤدي إلى انشطار الكتلة إلى كتل وأجنحة لا يجمع بينها إلا اسم الكتلة، وذلك لأن كل رأي يمكن أن يتكتل عليه جماعة ويدعون له، وبالتالي فيؤدي إلى تمزيق وحدة الجماعة. ويكفي هذا أن يكون موجباً للتبني وتحديد الفكرة والهدف وخط السير.

مثلاً: في الإسلام آراء فقهية متعددة تتعلق بشخص الخليفة، الذي هو الركيزة الأولى التي يقوم عليها تطبيق الإسلام، ووجوده في واقع الحياة فهناك رأي يقول، إن أي مسلم تتوفر فيه الشروط التالية يجوز له أن يكون خليفة ويجوز للمسلمين أن يولوه أمرهم، وهذه الشروط هي الإسلام والرجولة والعقل والبلوغ والحرية والعدالة وعلى كل شرط من هذه دليل من الكتاب والسنة، ولا عبرة لنسبه وقوميته ومدى علمه. وهناك رأي آخر في هذه المسألة يقول: إن الخليفة يجب أن تتوفر فيه هذه الشروط الستة، شرط أن يكون من قريش، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «**الأئمة من قريش**»[2]. وهناك رأي ثالث يشترط بالإضافة إلى الشروط الستة بأن يكون الخليفة من آل البيت لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3]. وهناك رأي رابع بوجوب أن يكون مجتهداً، حتى لا يكون خاضعاً لرأي مجتهد غيره فلا تتوفر فيه الولاية الحقَّة فلو افترضنا أن كتلة ما لم تحدد رأيها في هذه المسألة وكان بين أعضائها ومنتسبيها ومؤيديها من يحمل هذه الآراء الأربعة. وتكتل على هذه الآراء الأربعة جمهرة من المفكرين فيها وقادتها وكل منهم يرى أن رأيه هو الصواب، فلا يجوز له أن يتنازل عنه لغيره.

---

[1] سورة يوسف: ١٠٨.

[2] حديث صحيح، رواه البخاري في (كتاب الأحكام) عن معاوية أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين**». ورواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بنص أن رسول الله قال: «**الناس تبع لقريش في هذا الشيء مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم**». والنص الوارد في هذه الصفحة رواه أبو داوود في مسنده عن أنس ورواه الترمذي عن عمر بن العاص والإمام أحمد عن أنس بن مالك.

[3] سورة الأحزاب: ٣٣.

فإذا وصلت هذه الكتلة إلى الحكم وتنفيذ ما عندها من أحكام وأفكار وآراء، فأي رأي تأخذ؟ ومن المؤكد أن كل صاحب رأي سيحاول فرض رأيه ومقاومة الرأي الآخر. وماذا ستكون النتيجة؟ انشطار الكتلة واختلافها، إن لم يكن الاقتتال. ولهذا وللحكم الشرعي القائل (أن حكم الله الواحد، للشخص الواحد، لا يتعدد) والكتلة شخصية معنوية حكمها حكم الشخص الواحد فيما هو من صلاحيتها. فلا يجوز مطلقاً أن تتعدد فيها الأحكام والآراء والأفكار والمعتقدات، وكان تبني ما يلزمها من أفكار وأحكام ومعتقدات هو الصورة الحقيقية لها وهي بمثابة الروح لها، وعليها يتوقف وجودها حية وبها تأخذ ثقة الناس على بصيرة وتتغير أفكارهم وآراؤهم تبعاً لها، وبذلك تستطيع أن تكون لها رأياً عاماً تبني عليه أعراف الناس وتقاليدهم، التي هي الدعامة الأساسية من مقومات المجتمع.

أن تتعامل مع الأفكار الفاسدة والعادات السيئة الموجودة في المجتمع لإزالتها ووضع البديل لها. وهذا يقتضي معرفة ما في المجتمع من أفكار فاسدة وآراء خاطئة وعقائد باطلة حتى تتمكن من دحضها وإظهار فسادها وكشف زيفها وبطلانها، ولا يصح التعميم في ذلك والقول (الكفر ملة واحدة) -على صدق هذا القول- بل لا بد من مناقشة كل فكرة أو رأي أو معتقد مناقشة فكرية تبين خطأه وتكشف عواره، نعم إن الكفر ملة واحدة وهذه حقيقة ثابتة وتقرير واقع، فالدين لا يتجزأ فإما إسلام وإما كفر وليس هناك بين بين. لكن المسألة هنا ليست من أجل تقرير حقيقة، بل من حيث إزالة الفساد والخطأ والبطلان، ببيان ذلك وإقامة الحجة عليه بالدليل والبرهان وبنظرة دقيقة في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، بنظرة فيه، أنه تعامل مع فئات الكفر الموجودة جملة وتفصيلاً فقد تعامل مع كل فئة بما تقول وتدعي، وبما تؤمن وتعتقد فكانت تنزل الآيات الكريمة لإثبات بطلان تلك الأقوال والمعتقدات، وإقامة الحجة بالدليل القاطع على الحقيقة المراد إظهارها، حتى يكون إيمان من يؤمن عن عقل وبينة. ولم يكتف القرآن الكريم بإظهار عقيدة الإسلام وبيان ما احتوت عليه من حقائق وبراهين ساطعة، وترك للناس التفكير في ذلك بل ضرب على الأوتار الحساسة المثيرة لهم فهاجم معتقداتهم وسفه أحلامهم وبين غباءهم وجمودهم. وخاطبت آياته كل فئة بما عندها من أفكار ومعتقدات فخاطبت مشركي العرب على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ومن لف لفهم من عبدة الأوثان، فهاجمت عبادة الأصنام والوثنية هجوماً لا هوادة فيه، وعابت على معتقدي ذلك، وبينت تفاهتهم، من حيث عدم استعمالهم عقولهم، ليروا أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع. ولذلك وصفهم بأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1] وهل هناك استفزاز وضرب على أوتار حساسة. كما ناقش كل فكرة من أفكارهم سواء من أنكر وجود الله، أو من اتخذ إلهه هواه أو من عبد الأصنام لتقربه إلى الله زلفى، ثم بين لهم عبادة الأصنام منذ سالف الزمن فذكر أصنام قوم إبراهيم عليه السلام وكيف حطمها فلم تملك قوة الدفاع عن نفسها كما ذكر أصنام قوم نوح بأسمائها: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا

[1] سورة الأعراف: ١٧٩.

تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[1] كما ذكر أسماء بعض آلهة قريش: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[2] كما ناقش ألوهية من يدعي الألوهية بمثل ضربه عن حوار إبراهيم مع النمرود، بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3] أو مناقشة موسى مع فرعون، وهكذا فإنه لم يقتصر على فئة دون أخرى و لم يجملهم جملة واحدة و لم يكتفي بشرح فكرته وعقيدته وما يريده من الناس.

كما إنه أي القرآن الكريم لم يقتصر في هجومه على الأديان والمعتقدات، بل تعداها لما كانوا يقولون، أو ما كانوا يقومون به من أعمال والعلاقات التي تنتظم حياتهم ففي الوقت الذي يهاجم فيه الأديان كان يهاجم الأفعال ومل يتحلون به من صفات فقد نجد في سورة قصيرة ما يشمل كل هذا. مثل قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[4]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۞ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5].

وليقرأ كل منا القرآن الكريم ليتدبر الآيات والسور المكية كيف تناولت المجتمع بما فيه من عقائد وعادات وأعمال كانت تصدر عن العرب المشركين، بالإضافة إلى لفت النظر، وتركيز عقيدة الإسلام بالحجة والبرهان، بأن الله خالق كل شيء، وأنه منزل هذا القرآن وأنه لا إله إلا هو أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون وأن يوم القيامة لا ريب فيه.

ولنتدبر كيف تناولت تلك السور والآيات صنفاً آخر من الكفار هم أهل الكتاب، فكانت تجمل بينهم وبين مشركي العرب حين يقتضي الإجمال: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۞

---

[1] سورة نوح: ٢٣.

[2] سورة النجم: ١٩-٢٠.

[3] سورة البقرة: ٢٥٨.

[4] سورة الماعون.

[5] سورة المطففين: ١-٦.

رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾[2] ولكنه يمزج بين اليهود والنصارى ويخاطبهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء﴾[3]، ولكنه يفرد لكل منهما نوعاً خاصاً من المناقشة. وإقامة الدليل على بطلان ما يقول هذا الطرف أو ذاك. فهو يناقش بني إسرائيل ويخاطبهم يا بني إسرائيل حين يكون الأمر متعلقاً بما تدعيه اليهود ويناقشهم في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم وماذا أحدثوا في دينهم، وما غيروا في كتبهم وما قتلوا من أنبياء الله ظلماً وعدواناً وما طلبوا من أنبيائهم وما امتحنوا به، حتى ذكرهم القرآن في أكثر من سبع وعشرين سورة، وفي مواضع مختلفة.

وحين كان يخاطب النصارى منفردين كذلك كان يتناول ما أحدثوا في دينهم، وما بدلوا من عقائدهم سواء من قال منهم: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾[4]، أو من قال: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[5] أو الذين قالوا إن المسيح هو ابن الله ويذكرهم بما جاءهم به ليقيم الحجة عليهم ويسرد لهم قصة ولادة عيسى عليه السلام في سورة مريم، أو في سورة آل عمران مع قصة ذكريا، ويحيى ومريم في دقة متناهية لا يعرفها إلا من كان له إطلاع عليها، ومما كان الكثير من العرب إن لم يكن كلهم يجهلونه: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ﴾[6] كما بين أقوال اليهود في عيسى بن مريم، وما قالوا في النصارى وكذلك ما قال النصارى في اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾[7] فلم يترك شيئاً إلا بينه لهم لدحض حجتهم، وتسفيه أحلامهم ثم يذكر كل منهم على حده، بأن رسول الله محمد ﷺ قد ذكر في كتاب كل منهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[8].

---

[1] سورة البينة: ١-٢.

[2] سورة المدثر: ٣١.

[3] سورة آل عمران: ٦٤.

[4] سورة المائدة: ٧٣.

[5] سورة المائدة: ١٧.

[6] سورة هود: ٤٩.

[7] سورة البقرة: ١١٣.

[8] سورة الفتح: ٢٩.

ولم يقف عند حد ما هو موجود عندهم، بل تعداه إلى ما يجري بينهم من حوار وما يتفوهون به من أقوال، وما يقومون به من أعمال وما يحوكون من مؤامرات.

حين ادعى اليهود أن إبراهيم كان يهودياً، وادعت النصارى أن إبراهيم كان نصرانياً بين بعبارة قصيرة سخف ما ذهبوا إليه فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا﴾[1] وقال: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ﴾[2]. أي إن الديانة اليهودية والنصرانية كانتا بعد إبراهيم فكيف يتبع السابق اللاحق. إنه منتهى السخف.

كما بين لهم بعض ما يقومون به من أعمال كقتلهم الأنبياء وأكلهم الربا، والسحت وقد نهوا عنه كما بين تآمرهم على المسلمين. إذ قالوا لجماعتهم آمنوا أول النهار واكفروا آخره ليشككوا المسلمين في صدق نبوة سيدنا محمد، إلى غير ذلك.

ولما وجدت فئة جديدة لم تكن موجودة قبلاً في مجتمعه، تناولها بالكشف وبيان ما بيتت في نفوسها. فأفرد لهم سورة سميت باسمهم (المنافقون) بالإضافة إلى ذكرهم وصفاتهم وما يبيتون من أمور في مواطن كثيرة وفي سور متعددة. ففي مطلع سورة البقرة مثلاً، ذكر المؤمنين بأربع آيات وذكر الكفار بآيتين وذكر المنافقين بثلاث عشرة آية، كما ذكر بناءهم مسجداً ضراراً، وما أرادوا به من كيد فحرق عليهم رسول الله ﷺ ذلك المسجد، حتى إن أحدهم لو قال كلمة فضحه الله بها، كالذي قال: ﴿ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[3]، أو قولهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ﴾[4]. إلى غير ذلك من الأمور التي تناولها القرآن الكريم، كشد أزر رسول الله والمؤمنين بذكر سير الأنبياء السابقين، وما لقوا من أقوالهم.

من هذه التبصرة القصيرة يجب على فئة تدعي أنها تعمل لإنهاض الأمة، ورفعة شأنها أن تسير بنفس الطريق التي سارها رسول الله ﷺ، فتخوض صراعاً فكرياً مع ما في المجتمع من أفكار مغايرة، ولا يمكنها ذلك قطعاً إلا إذا كان لديها المعرفة الكاملة لهذه الأفكار والمعتقدات، حتى تتمكن من إثبات بطلانها، وفساد آرائها ولا يجوز أن تكتفي بطرح ما عندها على الناس لأن في هذا مخالفة لطريق رسول الله ﷺ وطريقة القرآن الكريم في الصراع الفكري، وقرع بالحجة والبرهان بالبرهان،.

---

[1] سورة آل عمران: ٦٧.

[2] سورة آل عمران: ٦٥.

[3] سورة التوبة: ٤٩.

[4] سورة المجادلة: ٨.

نزل القرآن الكريم على رسولنا ﷺ منجماً على فترة دامت ثلاثاً وعشرين سنة و لم يترل جملة واحدة وإنما كان بحسب الظروف والوقائع والأحوال، ومن هنا كان الواجب على كل فئة تعمل لإنهاض الأمة أن تتعايش مع الأحداث والوقائع والأحوال، حتى تستطيع أن تعطي رأي الإسلام في كل مسألة أو حادثة أو حالة، وتتبع الوقائع والأحداث يقتضي معرفة الواقع أو الحادثة معرفة تمكنه من الإحاطة بما يكتنفها من ظروف وأحوال وما يتعلق بها من أسباب وعلل، حتى يكون الرأي أو الحكم عليها صواباً أو قريباً من الصواب. وهذا يقتضي معرفة واقع مجتمعنا أولاً ثم معرفة القوى المتصارعة فيه، والدول المتنافسة على خيراته، وبسط هيمنتها ونفوذها عليه، ولنا بقصة أبي بكر رضي الله عنه ومراهنته كفار مكة على نتائج الحرب بين الفرس والروم وتدخل القرآن في ذلك خير دليل على وجوب تتبع الوقائع والأحداث، فهي تبين أن رسول الله ﷺ ومن معه كانوا كتلة سياسية تعي واقعها وتعرف مجتمعها كما تعي ما يحيط بها. فهذا أبو بكر يراهن كفار مكة على واقع عسكري وسياسي، بين أكبر دولتين في العالم في ذلك العصر، الفرس والروم وتأييد الباري عز وجل لمثل هذا الحوار. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1] هذا في الصراع الدولي والسياسة الخارجية.

وأما في الوضع الداخلي فما أروع كشف الواقعة التي اجتمع عليها كفار مكة لمناقشتها ويتدبروا أمرهم فيها، ويرسموا لذلك خطة عمل. وكان الله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد، فحين اجتمع كفار مكة في دار الندوة يتشاورون بشأن رسول الله ودعوته، وماذا يقولون عنه، وبماذا يجيبون الأعراب الوافدة إلى السوق، سوق عكاظ. وقد تزعم المجتمعين الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم، أو سيد مكة فقالوا يا أبا الوليد، ماذا نقول للناس؟ فقال: قولوا حتى أسمع فكانوا يدلون بآرائهم، والوليد يردها لعدم مطابقتها للواقع. فلما أعياهم الأمر قالوا: قل أنت إذن، فقطب حاجبيه وعقد ما بين عينيه، وأخذ يحك دماغه، ويذرع النادي ذهاباً وإياباً، حتى توصل إلى كلمة مضللة بليغة، فقال نقول عنه إنه ساحر بيان، يقول قولاً يفرق فيه بين المرء وأهله. وإذ بالوحي يخبر رسول الله ﷺ بما يدبر هؤلاء، فيترل فيهم قرآناً يكشف ذلك التآمر ويفضح ما جرى فيه بوصف دقيق رائع، قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۞ وَبَنِينَ شُهُودًا ۞ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۞ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۞ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۞ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۞ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۞ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[2].

---

[1] سورة الروم: ١-٤.

[2] سورة المدثر: ١١-٢٦.

هذا ما يجب أن يكون عليه الوعي على الأحداث والوقائع حتى نستطيع أن نعطي حكم الله فيها، أو أن نوضح للأمة ما يجري فيها من أحداث، أو ما يحاك لها من مؤامرات، وما يوضع في سبيل الدعوة من عقبات، قد تكون من أبناء الأمة نفسها أو من أعدائها بيد أبنائها، أو من أعدائها.

قلنا إن مقومات المجتمع هي العرف العام والنظام. وكما يجب أن تتعامل الكتلة مع الأفكار الفاسدة، والأحداث الجارية لبيان فسادها وإظهار بطلانها، وإبعادها عن حياة الناس وتفكيرهم، أن تعمل لإيجاد فكرتها في المجتمع لتكوين رأي عام عليها، يتكون بموجبه العرف العام. هذا ما يجب أن تتعامل به. كما إنه يجب عليها أن تتعامل مع الركيزة الثانية من مقومات المجتمع وأعني بذلك النظام القائم المتحكم بعلاقات الناس ورعاية شؤونهم، وإظهار فساده وزيف معالجاته، وسوء رعايته لشؤون الناس ومخالفته لعقيدتهم وما جاءت به من أحكام. وتحطيم الأسس التي يقوم عليها ذلك النظام. مع طرح البديل وإقامة الدليل على صدقه وصلاحه. وتضع الخط المستقيم أمام الخط الأعوج حتى يفقد الناس ثقتهم بالنظام وتأييدهم للقائمين على تنفيذه. هذا من جهة ومن جهة أخرى أن تتولى الكتلة كشف واقع هؤلاء النواطير الذين أقامهم الكافر على رقاب الناس حماة لمصالحه ومنفذين لنظامه، وناشرين لثقافته، حتى تثبت للناس خيانتهم لأمتهم، وعمالتهم لعدوها، فينفضوا عنهم بل ويساعدوا الكتلة على الإطاحة بهم وإبعادهم عن الحكم وهذا ما نعنيه بالكفاح السياسي وذلك اقتداء برسول الله ﷺ، وتطبيقاً للطريقة التي استعملها القرآن في هذا المجال. وفي الوقت الذي كان يبين فساد النظام كان يبين فساد الحكام وطغيانهم وجبروتهم ومنهم من هاجمه باسمه، ومنهم من هاجمه بصفته ومنهم من هاجمه بكلمة قالها، أو عمل قام به، فقد قال تعالى فيمن ذكرهم بالاسم: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1]. بالرغم من شرفه ومكانته في بني هاشم وقريش، و لم يكن هذا بأقل مما قاله في سيد مكة سيد بني مخزوم وأعني الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ إلى أن يقول: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[2]. ويقول فيه في سورة ن والقلم وما يسطرون: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ... سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[3] كما قال في الأخنس بن شريق: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾[4]. وكما يقول في غيرهم: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ۞ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾[5] ومن هنا كان الكفاح السياسي وأعني به مهاجمة النظام وبيان فساده ومهاجمة الحكام وإظهار خيانتهم وكشف مخططات سادتهم كان هذا الكفاح السياسي من أهم الأعمال التي يجب على الكتلة القيام به، لأنه هو الطريق الذي سار به سيدنا محمد ﷺ، والذي أرشده إليه ربه جل وعلا.

---

[1] سورة المسد.

[2] سورة المدثر: ١١-٢٦.

[3] سورة القلم: ١٣-١٦.

[4] سورة العلق: ١٥-١٦.

[5] سورة القيامة: ٣٤-٣٥.

والذي أمرنا باتباعه حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِّ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِّ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

إذن الطريق الموصلة إلى الأهداف المنشودة – دعوة إلى الله على بصيرة بالفكرة تبين أفكارها وأحكامها ونظمها وقوانينها وما جاءت به من أفكار ومعتقدات. وبصيرة بالطريق بحيث يعرف بكل خطوة يخطوها، ويعرف الكيفية التي ينفذ بها الفكرة وأحكامها، وبصيرة بالواقع الذي يعمل فيه لتغييره، بحيث يحيط علماً بما في هذا الواقع من عقائد وأفكار ونظم، وما فيه من أعراف وتقاليد، حتى يعرف كيف يقتلعها من النفوس، ويغرس بدلها ما جاء به من عقائد وأفكار وأحكام.

[1] سورة يوسف: ١٠٨.

المعاناة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1]

وبعد نزول الوحي على رسول الله ﷺ لأول مرة، ذهبت به زوجته خديجة رضوان الله عليها، إلى عمها ورقة بن نوفل ليسأله عما رآه وسمعه، قال ورقة: إن هذا هو الناموس الذي كان يترل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذعاً حين يخرجك قومك، فأنصرك نصراً مؤزراً، قال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم يا عماه، قال ورقة: نعم، ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي**».

وقال ﷺ: «**ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا حيث دار، ألا إن السلطان والقرآن سيفترقان، فالزموا الكتاب ألا وإنه سيولى عليكم أمراء ضالون مضلون، إن اتبعتموهم أضلوكم وإن خالفتموهم قتلوكم، قالوا فماذا نفعل يا رسول الله، قال كما فعل أصحاب عيسى شدوا على الخشب ونشروا بالمناشير فو الذي نفس محمد بيده لميتة في سبيل الله خير من حياة في معصيته**»[2]. كما قص الله سبحانه وتعالى من قصص الأنبياء على رسوله مبيناً له ما لاقى إخوانه من الأنبياء من الصد والتكذيب والإيذاء، وما كانت مواقف أولي العزم منهم، وذلك ليثبت به فؤاد رسول الله، ويقول له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[3]، فالناس هم الناس، وعملية التغير عليهم تلاقي ما لاقى سلفها، من إهمال ورد وتكذيب وصد ومحاربة بل إننا لنكاد نسمع من الناس اليوم ما قاله قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾[4]. هو نفس الكلام الذي يسمعه حملة الدعوة اليوم.

---

[1] سورة العصر.

[2] رواه أبو نعيم في دلائل النبوة.

[3] سورة الأحقاف: ٣٥.

[4] سورة هود: ٢٧.

ولهذا كان على العاملين لإنهاض أمتهم ورفعة شأنها وتغيير ما في نفوسها حتى يغير الله واقعها: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1]. كان على هؤلاء العاملين أن يوطدوا العزم ويشحذوا الهمم لمجابهة خصومهم، ودحر أعدائهم مقتدين برسول الله متوكلين على الله. ولقد قال الله تعالى في كتابه العزيز، مذكراً المؤمنين بما لاقوا من عنت، وما جابهوا من أخطار: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾[2]، نعم عليهم، أي مريدي النهضة أن يضعوا في حسابهم ما لاقى الرسول الله ﷺ وأصحابه الكرام. كيف كان ابتلاء الله لهم، وكيف كانت مواقفهم. مجاهدة النفس وبناؤها. وحملها على ما فرض الله عليها من علم وعمل، علم بما تريد، وما تدعو له، وعمل لإيجاد ذلك في واقع الحياة مع ما في ذلك من جهد ومثابرة،ومع ما فيه من محنة وابتلاء فإعداد النفس ووضعها في مركز المسؤولية والقيادة لهذه الأمة يحتم معرفة ما تتطلبه المسؤولية وما يلزم للقيادة.

إن من أوجب ما تطلبه المسؤولية والقيادة مسؤولية مباشرة عن ألف مليون مسلم ومسؤولية مستقبلية عن العالم بكامله، ليتحقق قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[3].

إن من أوجب ما تتطلبه المسؤولية هو العلم بما تريد وإلا فكيف يكون المسؤول مسؤولاً عن قوم ولا يدري ما هي مسؤوليته؟ وكيف يمكن أن ينقاد القوم لهذا المسؤول وهو لا يدري لأي اتجاه يقودهم؟ وصدق من قال (إن الأمة لا تعطي قيادها لجاهل ولا جبان) ولا يعني ذلك أن أبقى ساكتاً حتى ألم بالعلم كله بل المسألة أن أعقد العزم على معرفة ما يلزمني وما أحتاجه في مسؤوليتي والعمل بما بلغني أو عرفت فقد كان رسول الله ﷺ يبلغ ما سمعه من الوحي وما أوحى له به ربه، غير منتظر استكمال المعرفة وتمام العلم وقد استمر في الدعوة والتبليغ والتنفيذ ثلاثاً وعشرين سنة، فقد كان يبلغ الآية أو السورة أو الحديث بمجرد فراغ الوحي منه. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**بلغوا عني ولو آية**»[4] وقال: «**نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه**»[5]. هذا من حيث الفرد وأما من حيث الكتلة فإنه ومن أوجب واجباتها كذلك أن تعي ما تريد وأن تدرك مسؤوليتها وتعرف مكانتها وإمكانية قيادتها لشبابها وللأمة بل وللعالم حين توجد في مركز المسؤولية الفعلية وهذا يحتم عليها وضع المخطط الهندسي كاملاً لما تريد لتربي شبابها على أساسه وتأخذ ثقة الأمة وقيادتها بموجبه مدركة لما يجري في العالم من حولها من وقائع

---

[1] سورة الرعد: ١١.

[2] سورة الأنفال: ٢٦.

[3] سورة البقرة: ١٤٣.

[4] رواه البخاري والإمام أحمد والترمذي عن ابن عمر.

[5] رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن حبار في صحيحه عن ابن مسعود.

وأحداث، لتضع لها الحلول المناسبة والمعالجات الصحيحة فالأحداث والوقائع لا تتوقف. واتخاذ المواقف تجاهها أو وضع الحلول والمعالجات لها أمر لازم اقتداء لما جاء في القرآن الكريم وتنزله على الوقائع والأحداث وكشفه لما يحاك من خدع ومؤامرات وتصديه فكرياً لما يجري من أمور حتى ذاك الذي نهى صاحبه عن الصلاة نزلت الآية الزاجرة له: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۞ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى ۞ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۞ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۞ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى ۞ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾[1]، ولذا كان عليها أي على الكتلة أن تبدي رأيها في الأحداث والوقائع وتتخذ منها ما يجب من المواقف لا تأخذها في الله لومة لائم فلا تمالئ حاكماً ولا تتزلف إلى زعيم ولا تسكت على منكر: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[2]. هذه هي مجاهدة النفس بالعلم والصبر على المكاره مثل ما حصل مع بلال الحبشي ضرب بلال الحبشي رضوان الله عليه مرة وما أكثر ما ضرب وعذب فضاقت نفسه وذهب لرسول الله ﷺ شاكياً وقال يا رسول الله لو دعوت عليهم فسكت رسول الله ﷺ وسار به حتى استند إلى جدار الكعبة وقال له يا بلال إني لأرجو الله أن تسير الجارية بغنمها من اليمن إلى الفرات لا تخشى عليها إلا الله والذئب. درس يلقنه رسول الله ﷺ لأصحابه للارتفاع إلى مستوى المسؤولية والقيادة. أما قوله ﷺ لآل ياسر: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»[3] وترد سمية أم عمار بقولها كأني أراها أمامي يا رسول الله فهذا درس آخر ومن نوع آخر وهو احتمال الأذى والصبر على المكاره.

المعاناة في معاداة الولد والأهل والأقارب:

وظلم ذوي القربى أشد مضاعفة على النفس من وقع الحسام المهند

إنها سنة الله في خلقه فقد قص الله على رسوله ما حدث مع الأنبياء السابقين فهذا سيدنا نوح ابتلي بزوجته وولده: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾[4]،

[1] العلق: ٩-١٦.

[2] سورة القلم: ٩.

[3] مختصر سيرة ابن هشام ص ٥٧.

[4] سورة التحريم: ١٠.

وقال الله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[1]، وقص قصص الأقوام وما فعلوا بأنبيائهم وقص عليه ما فعلت بنو إسرائيل وقتلهم أنبيائهم بغير حق: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّهِ تَبْدِيلًا﴾[2]. ورسولنا وقدوتنا ماذا لاقى من عشيرته من الابتلاء؟ هذا عمه أبو لهب وامرأته، وهذه قريش ومواقفها، وهاهم العرب جميعاً يرمون عن قوس واحدة، وهذا دعاؤه حين عودته من الطائف: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل في غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك**»[3] أو كما قال.

وبنظرة بسيطة إلى صحابته الكرام ومعاداة أولادهم، أو آبائهم أو أمهاتهم أو أقاربهم لهم خير مثال، فهذا أبو بكر ابتلي بأبيه وابنه، وهذا أبو عبيدة ابتلي بأبيه، وهذا سعد ابن أبي وقاص ابتلي بأمه، وهاهم جمهرتهم يهاجرون إلى الحبشة فراراً بدينهم، ليس لهم ناصر من أهليهم وأقاربهم إلا الله وكفى بالله وكيلاً. هذا ما على الكتلة وشبابها من معاناة وصبر على مجابهة الأهل والأقارب، وما يجب عليهم اتخاذه من مواقف، حيال هذا الأمر، فلا يتوقع الفرد أو الكتلة المؤازرة أو التأييد والنصرة إلا بعد الامتحان والثبات.

المعاناة والصبر تجاه الناس: من البدهي أن يقف الناس موقف عداء وتصد لكل فكر جديد يريد أن يغير عليهم نمط عيش ألفوه، وطراز حياة اتخذوه بالإضافة إلى تغيير كامل في العلاقات التي تربطهم بعضهم ببعض ويتكون على أساسها مجتمعهم وبنيت عليها مصالحهم ونظمهم، وتوحدت على ذلك أحاسيسهم ومشاعرهم ولنا في رسول الله أسوة حسنة. فلم تكن دعوته للوحدانية وعبادة الله هي التي أثارت غضب قريش والعرب، فقد كان غيره يدعو لذلك مثل جماعة الحنيفية، كورقة بن نوفل، والقس بن ساعدة الإيادي الذي كان يخطب في سوق عكاظ ويقول "يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه إن لله ديناً خيراً من دينكم الذي أنتم عليه" فلم تعاده العرب و لم تتصد له لأنه لم يتعرض إلى العلاقات القائمة بينهم، ولا إلى مصالحهم ونمط عيشهم وحياتهم، ولكنهم حين سمعوا من رسول الله ﷺ يقول لهم: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» وسمعوا منه ما جاء به من قرآن أدركوا أبعاد ذلك، وتبين لهم أنه إنما يريد تغيير وجهة نظرهم للحياة، وهدم ذلك الكيان، وبناء كيان جديد على أسس جديدة، ونظرة للحياة جديدة، وفي هذا القضاء على مصالحهم وانتفاء زعامتهم، وجعل الحاكمية

---

[1] سورة هود: ٤٢-٤٣.

[2] سورة فاطر: ٤٣.

[3] سيرة ابن هشام ج١ص٤٢٠.

لله أي لغيرهم. ومن هنا كانت ثورتهم ومعاداتهم وعملهم للقضاء على هذه الدعوة، وكانت المجابهة بين الرسول وصحبه من جهة، والقريش والعرب من جهة ثانية، وكان تعذيب المستضعفين أمثال بلال وعمار وياسر وسمية وعبد الله بن مسعود وغيرهم، وكانت هجرة القادرين عليها، أمثال جعفر وعثمان وعبد الله بن جحش وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين، وما أجمل ما وصف به رب العالمين هذه المعاناة والصبر عليها بقوله: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾[1]، فقد بلغ الحال أن يخشى الفرد على نفسه، وتخشى الكتلة على نفسها من أن يتخطفها الناس ويزيلوها من الوجود، وما تحالفت عليه قريش من مقاطعة، وحبس الرسول ومن معه، ومن أيده في شعاب مكة، في شعب أبي طالب إلا ضرب من ضروب المقاومة، وأسلوب من أساليب التصدي.

وعليه؛ فإن أية كتلة أو حزب يعمل على تغيير المجتمع، أو تغيير العلاقات القائمة بين الناس، وتغيير النظام الذي ينتظم تلك العلاقات، وتغيير وجهة نظر الناس في الحياة، وبناء مجتمع على أفكار ومشاعر جديدة، ويسير علاقات الناس بأحكام جديدة ويمنع نظاماً ينظم العلاقات بأسس وقواعد جديدة، ويقوم على رعاية الناس بنمط جديد، ويوجد عندهم وجهة نظر معينة تبين لهم معنى وجودهم في الحياة.

إن أية كتلة أو حزب يقوم على هذه الأمور عليه أن يضع في حسبانه أن الإهمال والمقاطعة وقطع الأعناق، وقطع الأرزاق، هي بعض ما يلاقي في نضاله وعمله لإيجاد فكرته في واقع الحياة: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] وهنا يأتي وصفهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3]، أو قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[4].

المعاناة مع النظام والحكام:

إن الهدف هو إيجاد الإسلام في واقع الحياة، أي جعل أحكام الإسلام هي المسيرة لسلوك الفرد، والمنظمة لعلاقات المجتمع، وأن تكون السيادة للشرع، وأن يحمل الإسلام للعالم حتى تقوم الحجة على الناس، وأن يخرج الناس من الظلمات

[1] سورة الأنفال: ٢٦.

[2] سورة الزمر: ١٠.

[3] سورة العصر: ٣.

[4] سورة الكهف: ٢٨.

إلى النور. هذا معنى إيجاد الإسلام في واقع الحياة. وهذا يعني بناء أمة، وتغيير ما عليه المجتمع، وإقامة دولة تتولى تطبيق الإسلام في الداخل وحمله دعوة إلى العالم.

إن هذه العملية وإن كانت تقوم على بناء أمة، وتغيير ما عليه المجتمع من أفكار ومشاعر، فتبين فساد العلاقات القائمة بين الناس، سواء منها العلاقات القائمة بين الأفراد بعضهم مع بعض، أو العلاقات القائمة بين الناس والهيئة التنفيذية -السلطة- أو فساد العلاقات بين أجهزة الهيئة التنفيذية وصلاحية كل جهاز. إن هذه العملية وإن كانت تقوم على ذلك بالفكر فقط، وبوضع الخط المستقيم أمام الخط الأعوج، إلا أن ذلك يزعج القائمين على تنفيذ النظام، ويثير حفيظتهم، ويدفعهم لمحاولة القضاء على تلك الدعوة بشتى الأساليب وأقلها السجن، لأنهم يدركون أن وجود هذه الفكرة في الأمة إنما تعني زوال ملكهم وضرب مصالحهم.

إن فرعون مضرب المثل عند الناس بالطغيان والجبروت، لما قام به من ظلم وتجبر ولما لحق الناس منه من إذلال واستخفاف، حتى طلب من الناس عبادته: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[1] ووصفه رب العالمين أنه كان من المفسدين، وأنه كان طاغية إلى غير ذلك - إلا أن هذا الفرعون الطاغية الجبار قبل مقارعة الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان. قال تعالى على لسان فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ۞ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۞ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[2]. عند ذلك التفت فرعون إلى خاصته ومستشاريه وقال: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾[3]، وقال له مستشاروه: ﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[4]، فالتفت فرعون إلى موسى وقال له: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ۞ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۞ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[5]. فما أروع هذا الحوار الذي ورد في سورة طه بين موسى عليه السلام وهذا الطاغية.

سبحان الله إن هذا الفرعون الموصوف بالطغيان والجبروت يقبل بمقارعة الحجة ويقبل البرهان على مرأى ومسمع من الناس. فإن كان مثل هذا من يوصف بالظلم والجور والتعسف فبماذا نصف القائمين على رقاب الناس في هذه الأيام.

---

[1] سورة القصص: ٣٨.

[2] سورة طه: ٤٩-٥٢.

[3] سورة طه: ٦٣.

[4] الشعراء: ٣٦-٣٧.

[5] سورة طه: ٥٧-٥٩.

الذين لا يقبلون نقد أي حكم أو قانون، أو نظام ينظم علاقات الناس، وما جزاء من يفعل ذلك إلا السجن والتعذيب أو القتل أو التشريد، هذا هو الواقع الذي يتحتم على الكتلة العاملة مجابهته. وليس هناك أي طريق آخر يمكن أن يؤدي إلى بناء الأمة، وإصلاح المجتمع وتغيير النظام، وإيجاد الفكرة في واقع الحياة. ذلك لأن المجتمع إنما يقوم على العلاقات الدائمة بين الناس، وانتقاد أي علاقة إنما يعني انتقاد النظام القائم، وانتقاد النظام القائم يعني العمل على إزالته، والعمل على إزالة النظام بنظر الحاكم جريمة، وفاعلها بنظر القانون مجرم يستحق العقاب، وعملية تغيير ما عليه المجتمع من علاقات تقضي بوجوب إظهار فساد العلاقات، وفساد النظام. ولهذا وجبت المعاناة والصبر، ولهذا كان الأجر عظيماً والثواب جزيلاً «**سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى حاكم ظالم فقتله**» وهل أعظم أجراً وأجزل ثواباً من مصاحبة سيد الشهداء –حمزة بن عبد المطلب– أسد الله، وعم رسول الله ﷺ.

فكيف يجمع بين النقيضين، فالعمل يعني إظهار الحق وإزهاق الباطل، وهذا إنما يعني إظهار فساد العلاقات القائمة بين الناس والنظام الراعي لهذه العلاقات. سواء أكانت علاقات اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية، فالدستور والقوانين هي التي حددت هذه العلاقات وبينت كيفية تسييرها، من السير في الشارع إلى كلمة التي يقولها، ومن سلعة يبيعها أو بيت يستأجره أو بضاعة يستوردها أو يستوردها أو امرأة يتزوجها، أو تركة يرثها أو مدرسة يؤمها، أو مادة يدرسها فكلها علاقات نظمها القانون وقام الحاكم على تنفيذه. وإظهار أية مفسدة في ذلك إنما يعني إظهار مفاسد الحاكم والأجهزة القائمة على التنفيذ، وهذه جريمة تؤدي بصاحبها إلى السجن أو القتل. وإيثار السلامة يقتضي القعود عن العمل. فكيف نوفق بين العمل والسلامة؟ فالعمل يعني السجن والاضطهاد، والقعود يعني الإثم وسخط رب العباد.

والله سبحانه وتعالى أمرنا بالعمل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**»[2]، ويقول: «**الساكت عن الحق شيطان أخرس**»، أو كما قال. فكيف نوفق بين العمل والسجن، بين طاعة الله والسلامة.

هذا ما تقتضيه المعاناة والصبر والتواصي بالصبر. وهذا ما يحدد معنى وجود الإنسان في الحياة. إما الخسران المبين، وإما العمل والتواصي بالحق والتواصي بالصبر وذلك هو الفوز العظيم.

ورحم الله من قال: "والله لو لم أجد مقاومة من أهلي وأقرب الناس إلي، ولو لم أجد مقاومة وصدوداً من الناس، ومقاومة ومحاربة من النظم القائمة في العالم الإسلامي لشككت في الطريق الذي أسلكه لأن المقياس الثابت عندي قوله

[1] سورة آل عمران: ١٠٤.

[2] رواه البزار والطبراني في الأوسط.

ﷺ: «**لا راحة بعد اليوم يا خديجة**»، ومنهجي الوحيد طريقته التي سلكها، وما قصه الله عليه من سير الأنبياء والمرسلين الأولين وما لاقوا من أقوامهم وأهلهم. وما أجود كلمة ورقة بن نوفل حين قال للرسول ﷺ ليتني فيها جذعاً حين يخرجك قومك فأنصرك نصراً مؤزراً. قال رسول الله: «**أو مخرجي هم يا عماه، قال نعم، ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي**». ﴿سُنَّةَ اللهَّ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهَّ تَبْدِيلًا﴾[1].

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾[3] الآية.

[1] سورة الأحزاب: ٦٢.

[2] سورة البقرة: ١٤٣.

[3] سورة آل عمران: ١١٠.

أية أمة هذه؟

إنها الأمة الإسلامية بدليل ما كتبه علي بن أبي طالب وما أملاه عليه محمد رسول الله في أول دستور مكتوب موقع عليه من علية القوم. حين هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، فكانت أول مادة فيه هي التعريف بهذه الأمة، حيث جاء فيها: محمد رسول الله والذين معه من المؤمنين المسلمين أمة واحدة من دون الناس. هذه هي الأمة التي جعلها الله أمة وسطا. أي خير أمة أخرجت للناس، تحتل مركز الصدارة في العالم حتى تستطيع أن تقوم بالمهمة التي كلفت بها، أي الشهادة على الناس، تماماً كالمهمة التي قام بها محمد ﷺ. فقد كان في مركز الصدارة في هذه الأمة فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده. وترك في هذه الأمة الأمان من الضياع والوقاية من الضلال، فقال عليه السلام: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي**»[1].

هذه شهادة رسول الله ﷺ على أمته، وحجته عليهم فأين شهادة أمته على الناس؟. وقد بكى رسول الله ﷺ حين سمع قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيدًا﴾[2]. وقال للقارئ «**حسبك**».

لقد تولى هذا الأمر رسول الله طيلة حياته، حتى إذا اختار الرفيق الأعلى، ترك هذا الأمر لأمته. فنهضت به وتولى قيادتها أبو بكر الصديق ﷺ، فأقام الشهادة على فارس والروم، وسار في أثره عمر وتتابع بعده الخلفاء والأمراء حتى أقاموا الشهادة على الناس في ذلك العصر بحق. فكانوا أمة وسطا – كانوا الدولة الأولى التي تحتل مركز الصدارة في العالم، وتقيم الحجة على الناس وتبلغ ما بدأ به ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[3]. فحملت دعوة الإسلام وبلغتها إلى أمم الأرض قاطبة، من حدود الصين شرقاً إلى مياه الأطلسي غرباً ومن تركستان وسمرقند وأذربيجان مروراً بآسيا الوسطى حتى أسوار فينا في أواسط أوروبا، ومن جبل طارق إلى سهل بواتييه قرب باريس. واستمر الحال على هذا المنوال ما استمروا متصفين بما أمرهم الله به –يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر– فلما زاغوا ودب فيهم الوهن وابتعدوا عما أمروا به واقتربوا مما نهوا عنه، وضعفت جذوة الإيمان في نفوسهم وساء فهمهم لمعنى وجودهم في الحياة، ومعنى كونهم مسلمين، كما ساء فهمهم للإسلام، وانخفض تفكيرهم بل انحط في كثير من الأمور فانتشرت فيهم أمراض التجزئة والتخلف والانحطاط كالقومية والقبلية والوطنية والإقليمية والعصبية فدالت دولتهم وكسرت شوكتهم وهدمت دولتهم بل هدموا دولتهم ومزقوا راية مجدهم وتهافتوا على موائد الأمم يلتقطون من فتاتها ما يلم شعثهم ويقيم أودهم.

---

[1] حديث صحيح رواه الحاكم برواية عن أبي هريرة ﷺ.

[2] سورة النساء: ٤١.

[3] سورة سبأ: ٢٨.

وورثنا نحن اليوم هذه التركة. والمطلوب هو: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[1] وهل نستطيع الشهادة على الناس دون أن نوجد الإسلام في واقع الحياة، هل نستطيع الشهادة على الناس دون أن نستأنف نحن الحياة الإسلامية دون دولة تقيم الحدود وتحمي الثغور وترعى الشؤون، وتطبق أحكام الإسلام في الداخل وتحمل الإسلام إلى أمم الأرض لتقيم عليها الحجة فتحقق بذلك الشهادة عليها، أي أنها بلغت هذه الدعوة لكافة الأمم، وبسطت سلطان الإسلام على الأرض وأظهرت أحكامه وبينت عقائده وأفكاره فلم يبق لأحد حجة على الله، وهي الشاهدة على ذلك.

ورثنا هذه التركة، أكثر من ألف مليون مسلم في أكثر من خمسين دولة ليس للإسلام فيها سلطان، بل ليس له وجود في حياة الناس العامة، أفراد اقتصر المؤمنون منهم على العبادات والأخلاق -إلا من رحم ربي- ومجتمعات تسودها الأفكار الرأسمالية والشيوعية والآراء الانهزامية والنفاق واللامبالاة، وتنتابها المشاعر الوطنية والقومية والعصبية الروحية ودول تحكم بالأنظمة الرأسمالية والرأسمالية المرقعة والمصيبة الكبرى أنها جميعها مسيرة بإمرة الكفار وعملائهم.

وقادة سياسيون وتكتلات سياسية على اختلاف مشاربها تتسابق وتتناحر للحصول على مكاسب رخيصة وتحقيق أهداف آنية أنانية لم تعرف للنهضة أساساً ولم تستبن لها طريقاً. لا تجد عندها إلا شعارات لأفكار عامة لم تضع لنفسها منهجاً على الأقل يبين ما تريد نقل المجتمع إليه وإنهاضه على أساسه كما أنها لم توضح طريقة لها إلا المظاهرات ورفع الشعارات ومماألأة الحكام والتزلف إليهم أو معاداتهم والتصدي لهم حسب مقتضى الحال وما يتطلبه تحقيق مصلحة أو ترضية الشارع معلمين الناس أن السياسة إنما هي خداع وتضليل ونفاق وتزلف للوصول إلى الأهداف وتحقيق الآمال. والأنكى من ذلك أنهم يرون وجوب الاستعانة بالكفار لتحقيق مآربهم والوصول إلى مقاصدهم أو على الأقل لا يرون غضاضة في ذلك دون أن يعلموا أنه انتحار سياسي.

هذه هي التركة التي ورثناها وهذا هو واقع الأمة التي نريد التعامل معها لإنهاضها.

[1] سورة البقرة: ١٤٣.

الطريق السوي

قلنا إن النهضة هي الرقي الفكري، والفكر الراقي هو الفكر المتصف بالشمول والعمق بحيث يشمل الوجود بكامله -الكون والحياة والإنسان- هذا من حيث الشمول. أما من حيث العمق فلتقرير حقيقة هذا الوجود -أهو أزلي أم مخلوق لخالق- وبناء على ذلك فإن النهضة لا يمكن أن تتحقق إلا بمبدأ يقوم على عقيدة عقلية ينبثق عنها نظامها مبيناً الأساس الفكري في حياة الناس، والذي يحدد معنى وجود الإنسان في الحياة.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

هذه هي الإجابة عن معنى وجودنا في الحياة: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[3]. أي إن العقيدة التي هي أساس المبدأ، هي أساس حياة الفرد وأساس حياة المجتمع وأساس حياة الدولة. هذه العقيدة هي (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر).

من هذه العقيدة تنبثق كافة المعالجات لمشاكل الإنسان، وتبين له علاقاته الثلاث، علاقته مع خالقه بالعبادات وعلاقته مع نفسه بالعبادات وعلاقته مع غيره في المعاملات. فلم تترك شريعتنا أمراً إلا بينته، ولا عملاً إلا بينت حكمه فهي منهج حياة كامل، يحاسب الإنسان على ما كسب أو اكتسب في هذه الحياة بموجب هذا المنهج: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[4]، ﴿للهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾[5].

---

[1] سورة الأنعام: ٧٩.

[2] سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣.

[3] سورة البقرة: ١٥٦.

[4] سورة الزلزلة: ٧-٨.

[5] سورة البقرة: ٢٨٤.

كما إنها بينت أن عمل الإنسان الأساسي هو حمل هذه الرسالة، وتأدية هذه الأمانة ونشر هذا الدين. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهَّ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2]. وقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهّ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[3]، ويقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[4] الآية.

و لم تقتصر عقيدة المبدأ على المعالجات وحمل الدعوة بل بينت ما يلي:-

كيفية إيصال هذا المبدأ لواقع الحياة، وإنهاض الأمة على أساسه، وبناء الدولة التي توجده في معترك الحياة وتحمله للعالم وذلك بالأمر باقتفاء طريق الرسول ﷺ، وسيرته والمراحل التي مر بها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهَّ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[5].

بينت كذلك طريقة تنفيذ المحافظة على المبدأ والمحافظة على العقيدة والمحافظة على المجتمع والمحافظة على الدولة بأحكام بلغت حد القتل على من يحاول هدم هذه العقيدة أو المجتمع أو الدولة. وأوكلت لمن أنابه المسلمون عنهم. تولي تنفيذ هذه الأحكام.

بينت تنفيذ المعالجات فلم تتركها وصايا وإرشادات ومواعظ بل أمرت رئيس الدولة أن ينفذ هذه الأحكام سواء أكانت من العبادات أو الأخلاق أو المعاملات. فأمرت بتنفيذ العقوبة بكل من يقصر في العبادات في الصلاة أو الصوم أو الزكاة. كما أمرت بإيقاع العقوبة على من يقوم بأي عمل مناف لصفات المسلمين وأخلاقهم. أو من أكل طعاماً حراماً أو شرب شراباً حراماً فلم تترك له حرية الأكل أو الشرب.

---

[1] سورة فصلت: ٣٣.

[2] سورة النحل: ١٢٥.

[3] سورة التوبة: ٢٤.

[4] سورة المجادلة: ٢٢.

[5] سورة الأحزاب: ٢١.

كما إنها أوقعت العقوبات الرادعة لأية مخالفة شرعية في الحفاظ على أرواح الناس وكرامتهم وأنسابهم وأموالهم مثل قتل القاتل وجلد القاذف وقتل الزاني المحصن وقطع يد السارق. كما إنها حافظت على أمن الجماعة وطمأنينتهم في حياتهم بإيقاع العقوبات الزاجرة على المفسدين في الأرض. كالقتل والتصليب وقطع الأطراف والنفي من الأرض.

أما بالنسبة لحمل الدعوة فقد أوجبت ذلك على المسلمين جميعاً وأوجبت على من أنابوه عنهم الإعداد لتجهيز الجيوش، وقتال الكفار لتطبيق حكم الإسلام عليهم أو حفظ علاقات المسلمين معهم كالمعاهدات وأخذ الجزية وغير ذلك. وقد بينت ذلك في عشرات الآيات من القرآن الكريم وعشرات الأحاديث الشريفة.

وللوصول إلى الرقي الفكري -أي النهضة- فقد حدد الإسلام الثقافة التي على المسلم أن يتثقف بها. والكيفية التي تؤخذ بها هذه الثقافة. أما الثقافة الإسلامية فهي:

أولاً: ما جاءت به العقيدة الإسلامية. كالكتاب والسنة.

ثانياً: ما كانت العقيدة الإسلامية سبباً في بحثه. كعلوم اللغة العربية.

أما ما جاءت به العقيدة الإسلامية فهو مجموعة النصوص التي تضمنها كتاب الله وشرحها وتفسيرها، وتبيان أفكارها وأحكامها.

وتوضيح الحجج والبراهين التي لا تدع مجالاً للشك بأن الكتاب والسنة وحي من الله وأن ما جاء به محمد رسول الله ﷺ لم يكن إلا وحياً من عند الله، إلى غير ذلك مما تضمنته الآيات والأحاديث.

وأما ما كانت العقيدة الإسلامية سبباً في بحثه – فالمعروف أن الكتاب نزل باللغة العربية، وأحاديث محمد ﷺ هي باللغة العربية، ولا يمكن فهمها إلا باللغة العربية ولهذا كانت دراسة اللغة العربية بكافة فروعها مما كانت العقيدة الإسلامية سبباً في بحثه.

كذلك فإن تتبع الأحداث ومعرفة الواقع وفهم ما يستجد لإنزال الأحكام الشرعية عليها أو لبيان حكم الله فيها أو إظهار مخالفتها لأفكار الإسلام وأحكامه، فإن هذا مما كانت العقيدة الإسلامية سبباً في بحثه.

كذلك فإن المعارف التاريخية بحقائقها وأحداثها لمعرفة واقع الأمة الإسلامية عبر العصور وكيفية تطبيق الخلفاء للإسلام، ومعرفة البلاد التي ارتفعت عليها راية الإسلام وما يترتب على ذلك من أحكام، فإن ذلك مما كانت العقيدة الإسلامية سبباً في بحثه.

وأخيراً فإن معرفة الواقع الدولي والعلاقات الدولية وما يحيط ببلاد المسلمين من أحداث كذلك مما تقتضيه العقيدة الإسلامية، حتى يتمكن المسلمون من أداء دورهم في الحياة وتقديم الشهادة على الناس.

أما طريقة أخذ هذه المعارف جميعها فلابد من أن تؤخذ أخذاً فكرياً بحيث تتبلور إلى مفاهيم تؤثر بسلوك الناس وتسيرهم في الطريق السوي وذلك بـــ:

أولاً: أن يدرك الواقع الذي يراد معالجته إدراكاً ينفي عنه كل غموض ويزيل عنه كل التباس ويبعد عنه العموم أو الاشتباه.

ثانياً: أن يدرك واقع النصوص أو الأفكار وما تحويه من معان بحسب معانيها اللغوية أو الاصطلاحية أو الشرعية،والموضوع الذي جاءت به إدراكاً يبين ما حوت من علل أو شروط أو موانع أو أسباب.

ثالثاً: أن يجري التصديق بها وذلك بقياسها إلى القاعدة الفكرية أي العقيدة الإسلامية وما جاءت به من أدلة ومقاييس تصديقاً يحولها في نفس الإنسان من أفكار لها واقع إلى مفاهيم. أي إلى أفكار أُدرِك واقعها وجرى التصديق به، حتى تؤثر في سلوك الفرد.

رابعاً: أن تؤخذ هذه المعارف للعمل بها، وحملها إلى العالم أجمع.

خامساً: وأن يكون ذلك كله بطريقة مثيرة مؤثرة، أما كونها مثيرة فإن تجسيد الواقع بحيث يصبح ملموساً لدى الشخص يثير نحوه المشاعر والأحاسيس، ويشد الانتباه له وأما كونها مؤثرة فإنزالها على هذا الواقع بشكل دقيق ويربطها بالدليل الذي استنبطت منه، أي ربطها بالعقيدة أي القاعدة الفكرية التي آمن بها يجعلها مؤثرة فيه دافعة له للعمل.

ونتيجة طبيعية لسلوك هذا الطريق، أن توجد في الأمة طريقة للتفكير منتجة مبنية على قاعدة فكرية صحيحة، تؤدي إلى النهضة والارتقاء الفكري وبما أن الفكر لا يطيق أن يبقى حبيساً في النفس إذ لابد أن يظهر أثره في الحياة لأنه أخذ بطريقة سليمة أي أخذ عن إدراك واقعه، وإدراك الواقع الذي ينطبق عليه. وجرى التصديق به بالإضافة إلى كونه أخذ للعمل به. لا للترف الفكري أو المباهاة، ولذلك فإنه يصبح طبيعياً قائداً لمن آمن به مسيراً لسلوكه، أي أصبح قيادة فكرية، ينقاد بها الناس ويقودون بها غيرهم.

وبذلك تكون عقيدتهم قاعدة فكرية لهم يبنون عليها أفكارهم عن الوجود والحياة وتكون كذلك قيادة فكرية تنبثق منها نظمهم وأحكامهم لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. وساروا في طريق الكمال أي في طريق الرقي والنهضة، وعرف الناس معنى وجودهم في الحياة.

هذه هي النهضة، وهذه هي الكيفية التي توصل لها والحمد لله رب العالمين. اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.